تخمة الأقفاص

obeikan.com

obeikan.com

تخمة الأقفاص

مجموعة قصصية

محمد علي عبد القادر

حسناء للنشر

obeikan.com

obeikan.com

" عندما غادرتُ طفولتي، وفتحت المنديل المعقود الذي تركته لي أمي وعمتي، وجدت بداخله هزيمتهما، بكيت، ولكني بعد بكاء وتفكير أيضًا ألقيت بالمنديل وسرت، كنت غاضبةٌ.

عدت للكتابة عندما اصطدمت بالسؤال:

(ماذا لو أن الموت داهمني؟)

ساعتها قررت إنني سأكتب كي أترك شيئًا في منديلي المعقود."

رضوى عاشور

obeikan.com

obeikan.com

إهداء

إلي

من أرسلت إليهم بعض القصص ولم يبخلوا بالنصيحة

صافي ناز كاظم

عمرو العادلي

رشا سمير

obeikan.com

obeikan.com

القطار

أيقظني من غفوتي صفير إنذار يبلغني اقتراب قدوم قطار الأنفاق، أعددت نفسي للوقوف وتوجهت لباب معين أرغمت على الدخول منه، راوغت بجسدي بين تلك الأجساد المتشابكة حتى وجدت قدماي موضعا، جاهد أنفى في التقاط الأنفاس من الهواء الساخن الممزوج برائحة فظة تستفز الأنوف، ينضح وجهي وجسمي بالعرق حتى ابتلت ملابسي، يسود الصمت المكان، ولا يسمع سوى أنين العجلات وهى تكافح على القضبان.

obeikan.com

كلما تقدم القطار في سيره ابتلع في جوفه المزيد من الأجساد، غلبني الملل حتى مؤنسي الوحيد عجزت يدي أن تضعه أمام عيني لقراءته، لم أجد تسلية إلا أن أتصفح بنظري من وجه لأخر، تتشابه الوجوه في الأحرف لكنها تختلف في التعبير،

تصفحت الكثير والكثير حتى لمحت عيناي امرأة نهشت التجاعيد وجهها إلا أنه مازال يحتفظ بآثار جمال من عهد مضى.

ومنذ أن أبصرتها لاحت في نفسي سكينة وهدوء، وكأن ملامحها نحتت لذلك، ظلت عيناي شاخصة متربصة بحركاتها حتى أدركت عينيها أسهمي، أصابني الخجل بالوجوم، فأطرقت رأسي أرضا، بذلت كل ما بوسعي كي أبرح مكاني هربا لكن الأجساد لم تدع لي مهربا،

فلم أجد إلا أن أظل مطرقا، ولم تمض سوى دقائق معدودات حتى رفعت رأسي وعاودت التصفح مرارا متجنبا قبلتها، لكن راودتني نفسي وأجبرتني قوتها الآمرة أن أختلس نظرة عابرة للمرأة، التفت نحوها فوجدتها تشخص في بأعين ثابتة،

غضضت بصري برهة ثم خطفت نظرة ثانية منها، وكانت المفاجأة، لازالت المرأة ترصدني بعينين امتلأتا

بنظرات تشع بثقة كما لو كانت تعرفني ثم تبسمت ونطقت تسألني عن نفسي.

غرقت في صمت وظللت واجما لم تنبس شفتاي بحرف، كررت سؤالها مرة أخرى، فلم أفعل إلا أن غمغمت بكلام غير مفهوم، ثم أجبت بأنني في خير، اقتربت منى ومدت يدها تصافحني- في تلك اللحظة حاولت أن أفتش في رأسي عن أثر من ذاكرة لها لكنني فشلت-

صافحتها فأحكمت قبضة يدها على يدي، فأحسست بقشعريرة في بدني لم يبطلها سوى كبح القطار فجأة، زلزلت الأجساد زلزلة عظيمة، لكن المرأة ظلت في مكانها وعينيها مثبتة علىً، وبالرغم من شدة الازدحام إلا أن المرأة اقتربت منى أكثر، حتى دنا وجهها من وجهي، فحدثت نفسي متعجبا:

يا إلهي من تكون هذه المرأة؟

لقد تغيرت ملامحها في ثواني معدودات! فأصبحت فائقة الجمال ذات بشرة نضرة وقوام ممشوق، بادرتني بالكلام وقالت: يبدو أنك عرفتني ثم ابتسمت، لم أعلم من أين جاءتني الجرأة فقلت: نعم أعرفك حق المعرفة، فضحكت المرأة ضحكة ملكت قلبي ونفسي.

طابت لي المرأة وبهرتني بحديثها المقنع وأنوثتها الفاتنة، ثم أمسكت يدي وشبكت أصابعها بأصابعي، فنظرت حولي عل لم يرانا أحد، فقالت بصوت الواثق:

هل تخشى هؤلاء؟ فقبل أن أجيب أشارت بيدها إلى موضع قلبي فاختفى من عيني ركاب القطار، لم أر غير نفسي ونفسها، أشتد إعجابي بهذه المرأة ، ولا أنكر إنها أسرت قلبي وأصبحت عبداً لها، فعلت كل شيء لأجلها،

لم استطع أن ارفض لها مطلب، أصبحت كالمسحور، تآكلت لحظات العمر في حضرتها، أشتد انجذابي لها، وأشتد تنافرها مني، تغيرت كلياً، كل شيء فيها تغير، رجع وجهها كما كان بل أزداد قبحاً،

اختفى ما جذبني إليه، أنها ليست هي، تباعدت المرأة مسرعة حتى ضاعت في الزحام، بحثت عنها بين تلك الأجساد المكتظة فوجدتها تتحدث مع إنسان غيري، حاولت الوصول إليها لعلها ترجع لي لكن لا جدوى،

بدأت أشعر بالزحام، بشدة الحرارة، بدأت أستمع لتهامس من حولي يقولون: انظروا إلى هذا الرجل الذي لم يحترم شيخوخته، تعجبت لحديثهم وحدثت نفسي قائلاً: يا إلهي! أمثلي يوصف بهذا الوصف؟، هؤلاء الناس يقصدونني بهذا الحديث،؟

لكن قد أظهر حديثهم ما كانت عيني تخفيه فلم أري سوى وجه هرم، وظهر أحدب، وصحة تلاشت، وجدت نفسي كهل وقد بلغت مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً .فجأة سمعت صوت غليظ ينادى بأسمى، الصوت في أذني كالصرير،

الصوت يكرر أسمي مرارا دون أن يمل، سألت من بجواري عن مصدر الصوت لكن لا أحد يسمعه سوى أنا، ملكني القلق وارتعشت أطرافي، وضعت يداي على أذناي لعلى أمنع ذلك الصوت لكنه كان الأقوى،

أصبحت كالمجنون أصرخ قائلا: اكتموا هذا الصوت، ارحموني، توسلت للجميع، فينظروا إلىَ بشفقة قائلين: ليس لنا حيلة .اقتحم ذلك الصوت كل عضو في جسدي، تزداد غلظة الصوت مكرراً قائلاً:

حان وقت الرحيل....حان وقت الرحيل،

أيُّ رحيل يقصده ذلك الصوت؟ نظرت إلى المرأة أتوسل إليها أن تساعدني فلم أرى منها سوى ظهرها، ناديت عليها بملء فمي لكن تجاهلت صوتي .أفسح لي من حولي حتى رأيت الباب مفتوح، وأتى بعضا من أهلي يبكون ويحملوني لخارج القطار.

❊ ❊ ❊

كلنا مروان

يسرع مروان الخُطَى على رصيف شارع ٩ عاقداً ذراعيه أمام صدره، يرتجف بدنه ويرشح أنفه من القَرس، يبحث في جيبه عن مناديل لم يجد، ينظر أمامه لعله يجد دُكّان يشترى منه مطلبه لكنه لم يجد، يسرع خُطاه، يرى طفل يفترش الرصيف، الطفل قصير القامة لا يتعدى عمره عشر سنوات، تصبغ وجهه الأوساخ ويبدو أن شعره لم يلمسه ماء أو مشط من قبل.

obeikan.com

ملامح وجهه تخبرك الكثير، أحيانا تخبرك أنه رجل قزم وانك أخطأت التقدير، ومرات تحدثك بأنه طفل أجبرته الحياة أن يتقمص دور بالغ رشيد، يجعل من الشارع مسكنا، يتكون أثاثه من قفص مصنوع من الجريد مقلوب يحمل القليل من أكياس المناديل الورقية وبعض الأشياء المهملة التي ربما قصد الاحتفاظ بها أو تكاسل في التخلص منها،

بجوار القفص بطانية يصبغها خليط من التراب والأوساخ تستخدم كفراش وغطاء في آنٍ وَاحِدٍ ، وطفلة صغيرة لا تختلف في مظهرها عن الطفل، تلتحف بالبطانية مُدَافَعَةٌ عن نفسها من سهام البرد الغاشمة،

يتوقف مروان أمام الطفل يبتاع منه كيس مناديل ورقية، يبتسم الطفل ثم يبسط يده ماسكاً كيس المناديل قائلا: أتفضل

يتناول مروان الكيس منه، ويسحب منه منديل ماسحا مخاط أنفه، ثم يخرج محفظة النقود ويعطى للطفل مبلغ يزيد قليلا عن الثمن الفعلي، ينتبه مروان للطفلة الصغيرة ذات الملامح الجميلة الهادئة والتي لا يكاد عمرها أن يتعدى خمسة أعوام، يبتسم لها وتبتسم له،

يواصل مروان طريقه قاصداً مسكنه، أثناء توجه مروان إلى مسكنه ظل يحدثه عقله مسترجعاً منظر الطفل

والطفلة والقفص والبطانية وأكياس المناديل والبرد القارص، وبمجرد أن وصل إلى مسكنه تناسى ما رآه على الرصيف عندما رأى ابنه وابنته اللذان ربما يكونا في نفس عمر طفلي الرصيف، لعب وأستمتع وتبادل القبلات وتحدث مع طفليه، ونسى متاعب العمل بل حتى نسى البرد، وكأن رؤيته لأولاده دواء سريع المفعول

ينتهي يوم مروان بسعادة وراحة، يذهب إلى فراشه الدافئ ويلتحف بلحافه القطني، ويذهب في نوم عميق، يستيقظ في موعده، يتناول إفطاره ويرتدى ملابسه ثم يسلك نفس الشارع متوجها إلى عمله،

يرى عن كثب طفلي الرصيف غارقان في النوم يلتحفان بطانيتهما التي عجزت عن حمايتهما من البرد، فتغلبا على ذلك باحْتضان بعضهما،

أعتاد مروان موضع ومنظر طفلي الرصيف كلما غدا أو راح، يوم يحنو عليهما، ويوم لا يلاحظهما، استمر مروان على ذلك الحال حتى فوجئ بأن طفلي الرصيف لم يلزما مكانهما، أستغرب مروان الوضع، وخاصة أن القفص والبطانية في المكان نفسه،

شغله بعض القلق عليهما، لكن حدثته نفسه بأنهما ربما ذهبا لمكان ما، وسوف يعودا في أي وقت، مرت الأيام ولا أثر أو خبر عنهما، حاول أن يسأل عنهما،

وقف في مكانهما لعل يهتدي في طفل يشبهما لكنه لم يهتد، فقد الأمل، وأقنع نفسه أنهما غادرا المكان بحثا عن أخر، دخل مروان إلى مسكنه، يجرى عليه طفليه، يضحك ويلعب معهما، وفجأة يرى في مخيلته صورة طفلي الرصيف، تظهر ملامح الحزن على وجهه، يترك الأولاد في هدوء، ويذهب إلى غرفة نومه مهموماً،

تحدثه نفسه قائلة: لما هذا الحزن يا مروان؟

أنهما مجرد أولاد شوارع لا أهل لهم ولا مسكن، لا تقلق ولا تحزن، لابد أنهم في خير فقد أعتادا علي ذلك،

لكن مروان لم يقتنع بهذا الحديث رغم أنه حاول كثيرا الاقتناع به، وكان يزداد حزنه بمجرد أن يمشى في الشارع ولا يرى الطفلين.

المُحَيَّر أن مروان نفسه لا يعرف ما هو سر تعلقه بهذين الطفلين، هل لأنه أعتاد النظر إليهما والتفاؤل بهما، أو لأنه شعر بأنهما أطفال لا ذنب لهما أن يعيشا مثل هذه الحياة، يعيشا مثلهما مثل الكلاب الضالة، بل أن الكلاب تجد ما يتبناها ويقدم لها المسكن والمأكل، إنما هما لا رحيم ولا كريم عليهما سوى الله وإلا من رحم ربى من بني البشر،

يلوم نفسه لأنه لم يساعدهما حق المساعدة وأن أضعف الإيمان كان دلهما على دار للأيتام، لكن لا جدوى في اللوم على أمر انقضى،

تتابعت الأيام مزحزحة الذكريات القديمة بذكريات حديثة، وعاد مروان كما كان وكأن الطفلين لم يمرا على ذاكرته، لكن الذاكرة تخفى الذكريات في صحائفها غير قادرة على مسحها، هذا ما حدث مع مروان عندما مر على ثلاثة أطفال يقطنون الشارع في المكان نفسه،

اهتزت نفسه وتذكر ما توهم نسيانه، وقف مقابل الأطفال وأخرج نقود واهبا إياها لهم، ثم سألهم عن طفلي الرصيف لكنهم لم يعرفوا أكثر مما يعرف،

ترجل مروان على الرصيف، تسقط نظراته على بواب يجلس أمام المسكن المكلف به، المسكن لا يبعد عن مكان طفلي الرصيف غير خطوات معدودة، يسأله عن الطفلين،

يبدو أن البواب لم يتذكرهما وكان حجته أن الكثير من أطفال الشوارع كانوا يقطنوا هذا المكان، بل هو نفسه بين الحين والأخر كان يبعدهم ويزحهم بعيدا عن المسكن، استجابة لأوامر السكان خوفا منهم على سياراتهم وأولادهم، ظل البواب يتحدث عن هؤلاء الأولاد وعن مطاردته لهم، وظل يتباهى بنصر مزعوم،

ويسرد حكاياته عنهم وعن موت طفلة منذ أيام، حدق مروان إلى البواب ثم سأله عن الطفلة وشكلها؟

أجاب البواب قائلا:

كان يوجد هنا- أشار بيده إلى مكان أقامة الطفلين - طفلين لا أدرى من أين جاءَ،

وحقا أقول، كانا طفلان مهذبين لا يشبهان أطفال الشوارع، وفي يوم شديد البرودة كنت احتمى منه في غرفتي تحت ساتر من البطاطين، سمعت طرقا على باب المسكن، توجهت نحو الباب رأيت طفل يبكى منسكب الدموع، سألته عن الأمر،

قال لي : أن أخته مُغشّى عليها ساكنة لا تتحرك، وطلب أن أذهب معه لرؤيتها،

نهرت الطفل لتسببه في نهوضي من مرقدي، وذهبت معه لرؤية تلك الطفلة، وجدت الفتاة منكمشة على نفسها كأنها جنين في بطن أمه، اقتربت منها قائلاً: أَفِقْ يا بنت، لكن لم تجيب، رجعت إلى البيت باحثاً عن شيء يساعد في إفاقتها، لم أجد سوى زجاجة عطر، لكن لا مجيب،

لمست جَبين البنت وجدته بارداً للغاية، لم أجد أمامي سوى الاتصال بالإسعاف،وقد جاءت بعد حوالي ساعة من اتصالي، وأخبرني المُسعِف أنها ماتت، أقشعر بدن مروان عندما نطق الرجل بموت الطفلة ودمعت عيناه، واصل البواب حديثه قائلا: يبدو أنها ماتت من البرد،

سأله مروان بحزن شديد، وماذا عن الطفل؟

أجاب البواب: ظل يصرخ ويبكي قائلا: لا تتركيني يا أختي، ليس لي سواك في الدنيا، يا ليت أنا...يا ليت أنا، ومنذ تلك اللحظة لم أره

بكى مروان بكاء شديد، وتهدج صوته من البكاء، ثم سأله البواب: لما هذا البكاء؟ يبدو أنك كنت تعرفهما

أجاب مروان باكياً:

تموت الطفلة من البرد وتموت بداخلنا الرحمة.

❊ ❊ ❊

openkan.com

ابن الحِمار

منذ صغره وهو يستَنكَرَ حاله، يسأل نفسه لماذا خُلق حِمار؟ لماذا لم يُخلق بشر يحكم ويتحكم!؟، وعى ليجد أباه يشقى ويهان ويُضرب ويعمل بصبر غير مُستنفِرَ، أما هو فقد هاج على من حوله وأبَى العمل، فما ناله غير الحرمان من الأكل مرارًا والجلد تكرارًا، يقلق أبوه عليه ناصحًا:

البشر لا يرحمون وإذا نفد منهم الصبر سيبيعونك أو يقتلونك، يسأل أباه:

لماذا نحن الخدم وهم الأسياد؟

obeikan.com

يجيب الأب:

لأن الإنسان خليفة الله في الأرض، ونحن خلقنا لخدمته، وكفى علينا شقاء الدنيا، لم يقبل النصيحة وظل يدعو الله أن يصبح مثلهم فاستجاب له ونال ما تمنى، أستيقظ على هيئة بشر، لأول مرة في حياته ينصب قامته، يتجول دون لجام، يذهب كما يشاء،

مضت أيام قلائل وهو خالي البطن يبحث عن طعام، مظهره وقوة بدنه يبعدا عنه الصدقة، فوجد من نهره، ومن حثه على العمل، بحث عن عمل، فلم يجد غير مهنة حَمّال، جلبت له قوته المفرطة الشهرة، فأصبح أشهر حَمّال، وكسب الكثير من الأموال، أصبح من مُلاك الأعمال،

غمرته السعادة وحمد الله على نعمة الإنسانية، ضاقت به نفسه، بالرغم من كثرة الأموال والأملاك إلا أنه دائم الشعور بالعزلة دائم التفكير في شهواته، يسمع من هذا ومن ذاك عن النساء ودلالهن ورحيقهن، يتمنى تذوق رحيقهن لكنه لم يستطع جذب النساء إليه إلا بالأموال،

يغطس بنفسه في بحر اللذات، ولا يمر إلا القليل حتى يختنق، ويرفع رأسه نادمًا، ثم يلوم نفسه، ويسب المتعة المأجورة، ويعاود الكرة، هكذا دامت حياته التي لم

يـرض عنهـا، يسـرح بنظـره فـي المـرآة فيـرى هيئتـه الأولى، يعاود النظر مرات بعد مرات ثم يسأل نفسه:

كيف لـه أن يسود علـى البشر؟ أَسره الفكر وعزلـة عن الآخرين، وقرر أن الأموال تحتاج إلى نفوذ وكلاهمـا لـه أثر السحر في نفوس البشر.

مرت السنين، فاشتاق لأبيه، فذهب إليـه طالبًـا النصيحة، وجده رافع علي ظهره حمل ثقيل يصـعب خطواتـه، وقد ظهـرت الشـيخوخة عليـه، تفـرس الأب فـي ملامحـه، وبـادره السؤال: كيف حالـك يـا أدمـي؟، ومـاذا استفدت بكونك بشر؟، فحكي له متباهي عن نجاحاته ومكانته بين البشر، وكيف أصبح هو رب عملهم وربيب نعمتهم، ولا ينقصه غير السلطة والزواج من جنسهم، فقال له:

طلبت أن تكون بشر فاستكفي بـذلك يـا بنـي، ولا تطمـع في متاع الدنيا،

غضب الابن وقال:

امتلكت متاع الأموال، وأريد السلطة والزوجـة والأولاد، سأبني عائلة تحمل أسمي بعدي، وسأثبت لك لا فرق بين جنسـنا وجنسـهم، الحميـر اليـوم يمتلكـون ويتحكمـون، عرض علـي أبيـه العيش معـه، واليوم قد حـان ليستريح من مهانة البشر،

رفض الأب العرض، لكنه فوجئ بتخلي صاحبه عنه وبيعه لمالك جديد يكن له الوقار ويعامله كالسيد، المالك هو ابنه،

ابتسم الابن وقال: ألم أقل لك بأن المصالح تحركهم مهما طالت عشرتك معهم، يا أبي أنا اشتريتك بجنيهات كثيرة وكان صاحبك فرح ببيعك لأنه يعلم عدم جدواك وقدرتك علي العمل، ومن الآن ستركب البشر،

ثم جلب الابن أربعة رجال ليحملوا أبيه، وأمرهم أن يحسنوا معاملته، وإطعامه أطيب طعام، وانذرهم بسوء العاقبة إذا أهملوه،

اعترض الأب وترجاه أن يتركه يعيش حياته الذي خلق عليها، وأن يطلقه يرعي في أرض الله الواسعة، لكن عناد الابن وغروره أغشيا بصره، لا يسمع غير صوت نفسه، وأمر أباه بالمكوث في حجرته وعدم الخروج منها، فأذعن الأب له.

تضاعفت أملاكه وأمواله واشتهر في البلاد، في نفسه طموح جامح لا ينتهي، لا يعرف هل يريد أن يملك الدنيا، أو يقود البشر، أو يثبت لأبيه وجهة نظره،

صاحب علية القوم من أهل المال والساسة، وبأمواله وصل لمجلس الأمة، ومن بعده وزير وصديق لحاكم

البلاد، أحسنت أيها الحمار أصبحت ممن يضع القوانين والتشريعات التي ينتهجها البشر، هكذا يحدث نفسه.

الأب العجوز في أفخم حجرة في قصر ابنه الكبير، يخدمه خادمات جميلات، لا يأكل غير البرسيم العضوي والمياه المعدنية المستوردة من فرنسا، يعامل كأمير، والغريب أنهم لا يتأففون ولا يتذمرون، الكل يعلم بأن الباشا يحب هذا الحمار وشدد علي خدمته، وأمره مطاع، يبقي الأب حزين،

يخاف علي ابنه من نهاية دنيا البشر، أما الابن برغم بلوغه القمة ألا أنه يشعر بالوحدة، يحتاج إلي ونيس، فالعمر يسرع في خطاه، وقد شيب رأسه، وخططت بشرته بالتجاعيد،

يبقي دوما المرأة تحتل تفكيره حتى وقع بصره على امرأة جميلة الملامح، يفوح وجهها بالجمال وجسدها بالأنوثة، حينما أبصرها اقتحم قلبه الحب، هي مصممة أزياء، نالت شهرة واسعة بعملها المتقن،

يقدرها سيدات المجتمع، بل ورجاله أيضًا، تقدم برنامج ذائع الصيت في الشاشات الفضائية، تعرض خلاله أسرار الأناقة للسيدات، ولا تنس نصيب الرجال، عرض عليها الزواج فوافقت،

رأت فيه فرصة يجب استغلالها ، تراه رجل متواضع الملامح لكنه عالي المقام، ستكمل به ما لم تستطع استكماله،

تزوجا، وشهد زفافهم كبراء وأثرياء البلاد، ليلة زفاف تحدث عنها القاصي والداني، تكفي تكاليفها المالية أن تطعم ألاف الأسر الفقيرة، عاشا في قصره البديع، عرفها على أغلي كائن في حياته ألا وهو الحمار المدلل كما أطلق عليه الخدم،

ظهر علي ملامحها علامات الغضب، وحدثته عن شائعات يداولها الناس عن حبه لحمار، وأن أسمه اقترن مع عامة الشعب بالحمار، وطلبت أن يتخلص منه لإسكات تلك الشائعات،

غضب بشدة وثار في وجهها وذكرها بأن هذا الكائن ليس له ذنب بأن يكون حمار ولو أتيحت له الفرصة لتفوق على البشر أجمعين،

خرجت غاضبة أما هو بقي مع أبيه الذي طلب منه الرحيل، الأب لم يغضب أو يحزن من كلام زوج ابنه بل بدت عليه مظاهر التعجب حينما رآها، ألحت زوجته عليه لإبعاد هذا الحمار، وتزايد النكد والكآبة بل تفاقم الأمر بمغادرتها القصر، فلم يجد غير وضع الأب في

جمعية أنشأها خصيصًا لحقوق الحمير وأرسل معه الخدم لرعايته،

حقق الابن ما تمناه من مال وسلطة وزواج لكن حزنه يشتد ويتفاقم بكبر العمر، العجز هو المعضلة، نصح بعمليات التجميل تلك العمليات التي تقدر على المظهر وتعجز في كبح العمر.

ذهب لأبيه يستشيره في حاله، دخل علي أبيه، وجده طريح الأرض، فقد أصبحت حالته الصحية صعبة، يأكله المرض بنهم، بكى الابن علي حال أبيه، قال الأب: ما حالك مع زوجك؟،

قال: على أحسن حال، طبعها من طباعي، أشعر بقربها مني وكأنها ليست من بني البشر،

أبتسم الأب وقال: منذ الوهلة الأولى وتأكدت أنها ستكون السكن لك، يا بني حافظ عليها،

تعجب الابن من حديث أبيه وقال: توصيني عليها بالرغم من كرهها لك وجفاءها لك!

يا بني زوجتك وحيدة مثلك في هذه الدنيا، ثم أصمت المرض الأب، أعرب لأبيه خوفه من الموت وكره له،

فقال الأب: لا مفر من الموت سواء كنت بشر أو حيوان،

وأنا حمدت الله علي كوني حيوان يموت ويحيا ويتحول لتراب أم أنت فاخترت ما لم تختار له،

خرج الابن فوجد زوجه تلتف يمينا ويسرا، كأنها تهرب من شيء أو تخاف أن يراها أحد،

أختبئ وتعجب لماذا جاءت لهذا المكان، وكيف عرفت أنني هنا؟

توجهت إلي غرفة مجاورة لأبيه، وجلست أمام حمار تشكي لها عدم إنجابها وكرهها لدنيا البشر، وإنها مخطئة وتتمني أن ترجع كما كانت.

❊ ❊ ❊

الآنسة

أنا الآنسة راوية، وسأروى لكم الآن عما في قلبي، عما كتمته طيلة عمري، عمري الثلاث والستون، فتلك السنين احترقت من عمري وأنا مازلت عزباء ولم يمسسني بشر، لا تعجب، وأصبر وسأخبرك بأسراري التي أجهل لِمَ أنبش فيها اليوم وقد دفنت في صدري منذ سنين، لكن لابد أن يفيض البئر من قطرات ماء المتساقطة داخله يومًا بعد يوم،

obeikan.com

تمهل... ولا ترسم في مخيلتك بأني قبيحة الوجه أو مشوهة الجسد أو دميمة الأخلاق أو فقيرة النسب، لا يا سيدي... فأنا أملك منهم الكثير،

منذ أن فار جسدي وصرخ بالأنوثة، وأنا أسمع من الناس: متى سنفرح بكِ؟

العقبى لكِ كفلان، ألا يوجد عريس؟

كلام لا ينتهي ولن ينته حتى تنتهي حياتي، أتقبله بابتسامة غير مبالية، فأنا أقدر نفسي وأثق بها، وأخبرهم بعدم ظهور من يناسب طموحاتي... فأنا مازلت غضة العمر، وأنني في خير بدون زواج وأستشهد بمشاهد مؤلمة من حياة الأقرباء والأصدقاء، مهلا...وعدت نفسي الصراحة، غض الطرف عن مقولتي الأخيرة،

حقيقة القول... لم يرغبني أحد في الزواج غير رجل واحد، ورفض بحجة عدم التكافؤ المادي والاجتماعي، أتذكره جيدًا، وأتذكر نظرات عيناه لأمي وأبي بعد استبعاده، هو الآن أب لخمسة أبناء وجد لأربعة أحفاد، أَهَا! لو أصررت عليه وقتئذ لكانوا عائلتي، ومن بعد هذا الرجل لم يقرب بيتنا أحد، ولا تسألني لماذا؟، لأني لو علمت الإجابة... ما كنت أحدثك الآن،

تألمت...

نعم تألمت وتفاقمت الأحزان بداخلي دون أن يشعر بيَ أحد، أحبس نفسي في غرفتي وأطلق سراح الدموع، وأعاود مقابلة الناس شامخة الرأس، جِبلة لا تحس، أرى في أعينهم الشفقة والعطف، وأحيانا أرى الشماتة لظنهم بيَ الغرور،

نعم... اصطنع الغرور لأخفي ضعفي، اصطنع الغرور بالصمت حتى لا تكشفني الكلمات، اصطنع الغرور بطرق رأسي حتى لا تفضحني عيناي، أجادل، أناطح، داومت على هذا المنوال طيلة حياتي، شغلت بالي بالعمل، فرغت طاقتي فيه، سنة تلو أخري،

اصعد من نجاح إلي أخر، ترأست زملائي وأصبحت الأفضل فيهم، ولم ألق غير الاتهام بأن سر نجاحي ينبع من وقت فراغ أمتلكه وزوج وأطفال أفتقدهما، دومًا يذكرونني بعنوستي، كلامهم كنصل سكين بارد ينهش في بقايا روح تحاول الثبوت،

ربما تسأل نفسك:

أامرأة بهذا العمر وبتلك المميزات لم تحب أو تحب!؟

بلى... أحببت أشخاص عديدة، أحب بسماع كلمة ثناء علىّ، بمعاملة حسنة معي، بأطياف نظرة تحوم حولي، حب يهز قلبي بصمت، لكن لم أجرؤ أن أبوح بما يكتمه

قلبي، انتظر المحبوب ليصارحني، يطيل الانتظار، وتتوه ملامحه في غياهب الذكريات، وتنبثق ملامح أخرى تنتهج درب ما سبقها،

يا إلهي! وأنا في هذا العمر، كلما حضرت حفلة زفاف أتخيل نفسي العروس بفستانها الأبيض، تشبك أصابعها في أصابع العريس ويطوف حولهما الشباب، ويغني لها المطربون،

أتساءل: هل يا ترى لو كنت بسيطة الأسرة والجمال والمنصب، كان تغير حالي!؟، هل أنا مسحورة بعدم الزواج كما زعم بعض الأصدقاء المقربين ونصحوا الذهاب إلى السحرة لجلب الفرج، أمثلي تذهب للسحرة؟ فليغور الزواج إذا مس كرامتي وكبريائي،

ويحك أيتها النفس، ماذا لو استمعت لنصيحتهم، أكان قد تغير حالي؟ فنفسي تشتاق لزوج يجالسني وأجالسه، وأولاد أهتم بحياتهم ويهتموا بيَ، بعض أولاد أخوتي يحبوني وأحبهم ومنهم من يناديني بأمي لكن لا لوم عليهم إذا مكثوا دقائق وغادروا أو غابوا بالأيام دون سؤال.. فأنا لست أمهم،

أتنقل من حجرة لأخرى، أتحدث في الهاتف، أشاهد التلفاز، أجلس في الشرفة بالساعات أراقب الناس،

أخرج للتجول والتسوق لكن أبقى حبيسة بين الوحدة وحرف شرط غير جازم يدعى (لو)،

رأيت عمري في أصدقائي الذين تجعدت وجوههم، ومعارفي الذين غادروا الدنيا واحدًا تلو الأخر، بقيت في نظر من يراني سيدة عجوز يطمع فيها أقرب الأقربون ويتمنى موتها الوارثون، لا خوف من الموت فهو أتي، وليكرمني الله بما منعته عني الدنيا.

إذا كنت تقرأ خطابي هذا، فأعلم أنني في مكان خير من مكانك، وفي دار خير وأبقى، وإليكم وصيتي: تخصص نصف ثروتي لجمعيات مساعدة الفتيات غير القادرات على تجهيزات الزواج، والنصف المتبقي للورثة الشرعيين.

معذرة، يشوب الورقة بعض اللطخ نتجت عن دموعي المتساقطة دون قصد منيَ.

خالص تحياتي

❊ ❊ ❊

البالوعة

ينتابني أرق مزمن، أريد النوم ولا يريدني، أمسك بهاتفي المحمول، أتصفح الفيس بوك، لا جديد عليه منذ دقيقة، أتجول في البيت، أدخل الحمام رغم عدم احتياجي له،أتأمل في قطرات المياه المتساقطة... قطرة تلو قطرة،

وقفت في النافذة لأتطلع في الشارع، يسود الشارع الظلام باستثناء بعض البقع المنيرة بفعل الأشعة المتسللة من مداخل ونوافذ البيوت، صرير مزعج لصرصار الليل يجتاح أذني،

obeikandl.com

أزفر... أنقر بقبضة يدي على إطار النافذة مرات ومرات، ملل وأرق وخنقة يتحكمون فيّ،

ارتديت ما لمسته يدي من ملابس ونزلت للشارع، لعل المشي يخفف عنيّ، واصلت المشي دون وقوف، أدخل في شارع وأخرج من أخر، اِلتقطت أذني صوت خافت يقول: يا بني... يا بني،

اِلتفت إلي مصدره ولم أر صاحب الصوت فالمكان مظلم، خطيت في طريقي، فعاود النداء: يا بني... ساعدني، ترددت في الذهاب إليه ولا أعلم السبب أهو خوفًا أو كسلًا أو لا مبالاة؟، ومضيت في طريقي.

نهضت من الفراش قرب غروب الشمس بعد نوم متقطع، وكعادتي ... أمسكت الهاتف لتصفح الفيس بوك، بعد دقائق من التصفح جذب بصري عنوان:

الإهمال يتسبب في مصرع شخص سقط سهوًا في بالوعة مفتوحة، خبر عادي مثل الأخبار المتداولة يوميًا، لم أقل غير أنه مسكين عسير الحظ، أكملت قراءة منشورات الأصدقاء الفرضيين، وبالرغم من سخافة محتوياتها إلا أنها تسليتي الوحيدة،

انتشر الخبر نفسه على صفحات الموقع بصياغات مختلفة لكن شد بصري اسم المكان وتوقيت الزمان،

فهذا المكان بالقرب من سكني، والزمان البارحة، رن في رأسي عبارة: يا بني ساعدني، أمن الممكن أن يكون هذا الرجل ؟، وإذا كان هو!، ماذا أنا بفاعل؟، أهملت الخبر، ومارست ما اعتادت نفسي على فعله من جلوس علي المقاهي، والتسكع مع الأصدقاء، فهذا عملي الوحيد وخاصة إنني بدون عمل منذ شهور.

يا بني ساعدني...

أصبحت كصدي الصوت في رأسي، وعدت نفسي بالنسيان لكني لم أصدق الوعد، يتزايد مستوى الصدى وأصبح كالصفير، اضطربت أعصابي ولجأت إلي طبيب نفسي يداوي مرضي، اقنعني بالذهاب إلي مكان الحادثة لأتيقن من وقوع الواقعة، بحثت عن الشارع طويلا، تائه من ذاكرتي، سألت عن الرجل،

سمعت من الناس أقاويل كثيرة، أقاويل متناقدة، من يدعي بوقوع الحادثة لكن لامرأة، وأخرون يقسمون بأنه طفل، ومنهم ينكر وقوعها، وعدم وجود شارع بهذه المواصفات،

تفاقم التوتر بداخلي وأصبحت مشتت المزاج، ولم تنقطع عن أذني عبارة: ساعدني يا بني، توجهت للطبيب ثانية، طبيب بارد الأعصاب والحديث، يعاملني كمريض ويكتفى بتوجيه أسئلة سبق وأجبته عليها، ودائمًا أشعر

بشماتة في عينيه، فقدت ما تبقى من أعصابي وضربته ضربًا مبرحًا، والغريب أنه لم يعاقبني بأي رد فعل، ولم يبك بل ظل يقهقر وكأنه يتلذذ بالضرب، والأغرب أني لم ارتح بضربه، ساء حالي وتوجهت لشيخ من أولي البركة لعله يستطيع مساعدتي، وبمجرد أن اجتزت الباب الحديدي لبيت بنيانه من كتل صخرية ومعلق على مدخله يافطة مكتوب عليها:

لمن الملك اليوم...لله الواحد القهار،

رأيت رجل كهل تشبه ملامحه ملامح الطبيب لكنه بلحية بيضاء ملطخة بصبغة برتقالية، شعرها كثيف يخفي رقبته وجزء من صدره، نظراته مخيفة، وصوته منبوح، نظر إليَّ طويلًا ثم غرف بيده مقدار شربة ماء من طاسة نحاسية ساكنة بجواره وقذفني بها في وجهي على غفلة منيٍّ،

انتفض جسدي ووثبت واقفًا، وبمجرد أن فتحت عيناي رأيت إعصار من مادة بيضاء يتجه نحوي، غطى وجهي ورأسي، والعجيب أنني لم أغضب بل أحسست براحة بين يديه، ثم أمرني بخلع الحذاء وطلب الجورب الأيسر، ورمى به في صحن ممتلئ بالفحم المشتعل، ولطن بلغة غريبة، وارتعش جسمه ووقف فجأة وتحدث إليّ قائلًا: يا بني ساعدني، يا إلهي!

أنه صوت الرجل الذي طلب المساعدة، خوف وفزع لم أر مثلهما في حياتي، استطرد سائلًا، لماذا لم تلب ندائي يا بني؟ لعنتي عليك حتى مماتك إلا إذا... انقطع الكلام، وتحشرج صوت الشيخ كأنه يخرج الروح، ورجع صوته كما كان وقال: لا أستطيع مساعدتك وأغرب عن وجهي الآن ولا تأت إلا إذا اكتمل القمر بدرًا،

أصبحت بقايا جسد تناثرت أعضائه بين البلدان وكلما أوشكت على الاستقرار تدحرجها الأعاصير إلى مكان أخر، لم يبق ليّ غير هذا الشيخ، ذهبت إليه في الميعاد، وبمجرد أن جلست بدأ في التحدث:

من قتلته هو شيخنا ومعلمنا ولكي يرض عنك، عليك بنقل جثمانه الطاهر إلي بيتك ويبيت ثلاث ليالي على فراش ابنك، أصابني الهول مما سمعت، لم أستطع فعل ما طلبه، وإدا فعلت فلم يرض به أحد، وقتئذ سأؤكد لهم ما لمحته في أعينهم، لعنة الله على الطبيب والشيخ والرجل العجوز،

فليذهب الجميع إلى الجحيم، بل أذهب أنا أيضًا، لكمات متزايدة على رأسي، سجنت نفسي في غرفة ولدي، لا أحد يراني أو يسمعني، وفي نهاية المطاف لجأت للشيخ مرة أخري، أرجوه يعدل من طلباته، قال: هذا هو العلاج والأمر بيدك،

يا إلهي! يدي مفلسة ولم يبق فيها سوى ما طلبه الشيخ، ذهبت لمقبرة الرجل ونبشتها، وأخرجت الجسد، وحملته ليلًا للبيت، ووضعته على سرير ابني، وبقيت في فناء البيت أراقب زوجتي لأمنعها من الدخول إذا رغبت في الدخول، أسرعت امرأتي بالخروج من البيت،

تبكي بشدة رغم أنها تجهل سري، ما الذي أبكاها؟

ولماذا تركت البيت؟ شعرت براحة مع جسد الرجل، لم يمر على الراحة سوى ساعات معدودات حتى عادت زوجتي مع أبي وأمي وبعض الأقارب، وجوه الرجال واجمة متعجبة، والنساء باكيات نائحات، تعجبت لمجيئهم، سألتهم عن السبب، توجهوا نحو غرفة ابني،

أسرعت لباب الحجرة أحرسها وأمنعهم من الدخول، وصرخت قائلًا: أرجوكم اتركوا الجسد، فهذا علاج تحسنت عليه، ألتف حولي بعض الرجال وأحكموا قبضتهم علىّ، قاومت حتى الاستسلام، دخلوا الحجرة وحملوا الشيخ، والنساء يصرخن ويقول بعضهن:

لم يصدق موت ابنه وأخرجه من مقبرته.

❊ ❊ ❊

زكيبة الأحزان

رأيت اليوم كهل أصلع أشعث، قصير القامة، جسمه عظما مجلدا، أحدب، ولا أعلم هل حدب ظهره من ثقل الهم أم من كبر العمر، يرتدى جلباب خرق يعلوه صديري شاحب السواد، يسير كأنه يزحف لما يحمله من ثقل عظيم،

يلتصق ظهره النحيل بزكيبة امتلأت بمخلفات غيره من بنى البشر، أغمّني مظهره، وقفت شارد الذِّهن، تتبع عيني خُطاه حتى كاد أن يختفي أثره،

obeikan.com

لملمت ما تبقى من تفكيري ثم خطوت نحوه، رأيته يقذف حمولته على الأرض، وارتمى على حجر يعترض الطريق ليأخذ قسطا من الراحة، جلس الكهل وشهق شهقا شديدا كالناجي من الغرق حين يستفيق، ثم وضع يَمِينِهِ على ظهره محاولا أن يخفف من أوجاعه، ثم صرخ مُكْثِراً مِنَ الآهَاتِ،

أطرق العجوز رأسه وظل يئن أنين المتألمين ويزفر زفرات المتوجعين، لم يمكث طويلا على هذا الحال، رفع رأسه شاخصا إلى الزكيبة كأنما ينذر نفسه بأن الوقت يداهمه وعليه الكثير من المهام التي لا مفر منها، استجمع قواه وعزم النهوض ولكن أسقطته الأوجاع،

طَافَ بِبَصَرِهِ يَمْنَةً وَيَسْرَةً باحثا عن شخص يساعده على النهوض، أسرعت الخطى متوجها إليه، بسطت يدي ليتشبث بها، أمسك الرجل يدي بإحكام، محاولاً النهوض بنفسه، جذبت الرجل بعزم قوتي حتى استطاع الوقوف، بعد أن شكرني وخصني بالدعاء، انحنى على زكيبته لحملها، ساعدته على حملها حتى سكنت على ظهره،

أفجعتني رائحتها النتنة وحملها الثقيل، لم أتَمالَك نفسي وعزمت أن استبثه ذات نفسه، ترجلت إليه وحين بلغته كان قد قذف زكيبته على الأرض بشدة، أصدر سقوطها صوتا مسموع وغبار يلهى الأبصار، ثم أَلْقَى

بنَفْسَهُ على أكمة من التراب قليلة العلو، اقتربت منه ومددت يدي إليه بزجاجة مياه وقلت:

تفضل يا عماه ،هون الله عليك، نظر إلى قائلا: أشكرك يا بني، وبورك في حياتك، ثم صمتنا برهة وبادرته بالكلام قائلاً:

ألا تحتاج لشيء يا عماه ؟

يبدو عليك التعب والإرهاق، أثناء حديثي معه، كان يرتشف تارة ويتوجع تارة أخرى، رفع رأسه نحوى وقد لمحت في مآقيه دمعة رقيقة، تنهد الرجل ثم قال لا أحتاج لشيء غير الموت هو لي خير رحيم، تعبت يا بني من هذه الدنيا التي لا عزيز بها.

لم أنكر أن نفسي تاقت للمزيد من حديثه، ورغبت في معرفة سرائر نفسه، فقلت له:

هون عليك حالك يا عماه، فضفض عما في نفسك، وقص علي، فأنى لك خير مصغي، شخَص إلى الرجل وكانت نظرته يصبغها الكثير من الحزن والألم، وتمتم بصوت غير واضح، ثم قال أترغب في سماع قصتي؟

أَجبت متصنع الذكاء لكي ابرر فضولي، نعم يا عماه، أريدك أن تفضفض حتى تزيح بعض الحزن عن نفسك،

قال: أنى سأخبرك بتفاصيل قصتي، لكن أريدك أن تعهد لي انك لا تخبر أحدا عن صاحب القصة، ولك كل الحق في بث قصتي لمن تشاء، فأن في قصتي عبرة لذوى الأبصار،

قلت له لك عهدي

استطردت الرجل:

أنا يا بني فلان ابن فلان من عائلة فلان،

جذب انتباهي اسم العائلة لما معروف عنها الغنى والصيت، فقطعت حديثه قائلا: أتقصد عائلة فلان الذي ينتمي إليها فلان باشا وفلان بك

تبسم الرجل ابتسامة ميتة وعينه تحدثني بأن أصدقه ثم قال: نعم يا بني فأنهم أبناء عمومة، ثم واصل حديثه

ولم يسيطر على عبراته فخرجت الدموع، وأسرعت أنفاسه دخولا وخروجا، حتى غلب عليه البكاء، وأطرق هنيهة، ولكنه بعد حين تمالك نفسه وقال: تزوجت في مُقْتَبَل الشّباب ولم يشأ الله لي الإنجاب، طرقت جميع الأبواب باحثا عن دواء، وبعد ثلاثة عقود من زواجي رزقني الله بولد، ولم تكتمل فرحتي، ثم اضطرب حديثه وقال:

ماتت أمه أثناء ولادته، يا ليت كنت أنا، فداكِ عمري يا خير زوجة،

عكفت على تربية ابني رافضا أية نصيحة لي بالزواج، خشيت عليه من المجهول، حاولت أن أعوضه عن فقدان حنان الأم،

شب الولد في عيشة رخاء، ولكن أعلم يا بني أن أيام الدنيا قصيرة ودوام الحال من المحال، في يوم جاء إلى يطلب موافقتي على خطبة بنت أعجب بها وكانت زميلته في الكلية، ولم أنكر أنى كنت في غاية السعادة والسرور لهذا الطلب لكن قاومت رغبتي وذكرته بدراسته ومدى حرصي على مستقبله وأعطيته كلمتي بتحقيق مراده بمجرد أن ينهى دراسته،

تقبل الولد الكلام وسعد به، في اليوم التالي جاءَني يجدد نفس الطلب،

استغربت كثيرا لأني لم أعتد منه الإلحاح والتشبث بالرأي، وكانت نظراته تنطق بالتحدي والإصرار، تكلمت معه لكن لا جدوى من الكلام، وفى النهاية وافقت على طلبه مرغمًا،

بعد أيام قلائل، ذهبنا إلى بيتها لخطبتها،

البيت في منطقة عشوائية مجردة من ألوان الحياة، وأقسم لك يا بني لم يشغلني مستوى المكان،

ولكن مثلى كمثل أي أب يرغب لابنه مستوى اجتماعي عال يكون شرف له ولى ولأولاده، وصبرت نفسي وحدثتها، لعل وأن تكون الفتاة والأهل ذوى أدب ودين، بعد مشقة طويلة سيرا على الأقدام دخولا في حارة وخروجا من أخرى،

وصلنا أخيرا إلى منزل الفتاه، استقبلنا أهلها استقبال خالي من الذوق وكرم الضيافة، وتقدمت الفتاه لتحيتي، فتاة جميلة الوجه، طويلة القامة، لكن يا بني لم أشعر نحوها بسكينة أو استقطاب روحي، ومن الوهلة الأولى تنبأت بعدم التوافق الأخلاقي والاجتماعي بيننا وبينهم، بعد انتهاء اللقاء،

حاولت أن أقنع ولدى مرارا وتكرارا بتغير رأيه في تلك الزيجة، لكن باءت جهودي جميعا بالفشل، تمت الزيجة وعاشوا معي في بيتي،

ومرت السنون متحمل لسانها السليط وطلباتها المبالغ فيها، وكان الذي يحزنني، هو ضعف شخصية ابني أمامها، وحبه الشديد لها، وفى المقابل كانت هي باردة المشاعر لا تهتم غير بنفسها، كانت نفس مادية لا تعنى

بشيء سواها، لا تعطف ولا ترحم، لها المقدرة على تحقيق أهدافها بأية طريقة،

قاطعت حديثة مستغربا قائلا: تمردت على عيشة لم تعيشها من قبل!

أجاب الرجل: هكذا كان الوضع مع زوجة ابني لم تشبع من المال بعد جوع وفقر عاشت فيهما معظم حياتها، واصل الرجل سرد حكايته قائلا: ولمحت عليها بعض التغيرات مثل الخروج من المنزل بعد خروج ابني للعمل، والحديث الكثير في الهاتف الخلوي،

وفى يوما ما كانت تعتقد أنني نائم، سمعت مصادفة حديثها في التليفون مع شخص ما، تقول له أنها لن تستطيع المجيء في يوم غد لوجود زوجها في المنزل وأنها دبرت المبلغ المالي المتفق عليه، لم أتمالك نفسي، واتجهت نحوها سائلا عن المتحدث وعن معنى حديثها،

ارتبكت ثم قالت انه موعد مع صديقتها، ولكن يا بني تعمدت أن أتنصت على حديثها، وسمعتها مرارا وتكرارا تكلم ذلك الشخص، وتأكدت من خيانتها لولدي، تحدثت معها لكنها لم تكترث لحديثي، سبتني بأسوأ الشتائم التي لم تطرق أذني مثلها،

ونبهتها باني سأبلغ ابني، نظرت إلى ساخرة وقالت: إذا صدقك أيها العجوز الخرف، حدثت ابني بما سمعته ونصحته بإنهاء الأمر بالمعروف،

في ذلك الحين، استشاط غضبا، ثم ركض نحو غرفته، ولم تمض دقائق حتى خرج من غرفته وأسرع خطاه نحوى ثم لطمني على وجهي،هنا بكى الرجل بكاء شديد واضعا يده اليمنى على خده الأيمن،

قلت له:

هون عليك يا عماه، ثم صبرت حتى هدأ وسألته لماذا فعل ابنه ذلك؟

قال:

زعمت زوجته أنني راودتها عن نفسها مقابل المال، وعندما امتنعت عنى، دبرت لها تلك المكيدة، وأتقنت الكذب خير إتقان ، وا أسفاه! صدقها ولدى، ثم عاود البكاء، واصل الرجل حكي قصته قائلا: حزنت وأكتئبت حتى مرضت، وكنت شديد المرض، ولم أر من ولدى اهتمام بل رأيت جفاء وعقوق،

ولم يتذكر أنى والده الذي ضحى بنفسه لأجله،

وبعد عدة شهور من المرض شفاني الله وأصبحت سليم الجسد عليل الروح،

لا أرغب في شيء، وفى يوم من أيام الله،

سمعت صوت صراخ واستغاثة من خارج حجرتي، لملمت جسدي من الفراش وتوجهت إلى الخارج أستطلع الأمر، فجأة سكت الصراخ، وخرج ابني من حجرته مهرولا صارخاً قائلا:

قتلتها يا أبى قتلتها، سامحني يا أبى لقد كنت محقا، كنت على صواب، أغشى حبها بصري، الخائنة الخائنة، قتلتها يا أبى قتلتها،

صعقني كلامه صعقة قوية، هزت وجداني، توجهت سريعا إلى حجرته مكذباً إياه، راجيا الله أن يكون قد توهم لكن نفذ الأمر ومضى، وجدتها منكبه على وجهها سابحة في بركة من الدماء،

فجأة تخيلت حياة ولدى بين براثن السجون، تخيلت ابني أرنب في غابة سباع،

وخطر على بالي أنى رجل عجوز عمره مضى ولن يبقى منه غير القليل، خطوت نحو ابني وجدته يائسا بائسا يبكى على حاله،

قلت له لا تحزن يا ولدى، ليس لك ذنب في شيء، الذنب ذنبي، أنا الذي محوت شخصيتك وكسرت كبريائك بخوفي عليك، أنا الذي جعلتك تابع، تؤمر ولا تأمُّر، تقبل ولا تعترض، حبي لك كان السلاح الذي قتلك،

ثم قلت له: أنا القاتل أنا الذي قتلت زوجتك، لا شيء غير ذلك، أُفضل الموت وأن تبقى حرًا، نظر إلى باكي وصرخ قائلا:

لا يا أبى، لما يا أبى تتحمل أوزاري دائما؟ اتركني أتحمل مصائبي، دعني وشأني، لم استمع لحديثه، ثم أمسكت بالقلم، وعزمت على كتابة اعتراف بارتكاب تلك الجريمة، وعلى أن أتنازل عن كل ما أملك لابني حتى يحيا حياة كريمة أعتادها،

صرخ ابني صرخات متتالية محاولا إرجاعي على ما عزمت فعله، لكن لم يطاوعني قلبي، ولم تهدأ نفسي، حتى بلغت مرادي،

ولكن يا بني بلغ منى التأثر مبلغا لم أقدر معه أن أتحكم في نفسي، فأجهشت بالبكاء، وخرجت قاصدا الهروب لا أعلم إلى أين،

ومرت ودارت بي الشهور وأن تائه في بحار الدنيا لا أجد ملجأ ولا مأكل ، دمعت عيناي، نظر إلي وقال: لم

تنتهي قصتي بعد، فقد رأيتهما معًا، رأيت ابني وزوجته التي لم تمت، خدعني ابني وقتلني،

قتلني من ضحيت بعمري من أجله، ثم بكى الرجل بدموع لم تهدأ، ونشيج لم يفتر، وصرخ قائلا: قتلني ولدى، قتل قلبي، قتل نفسي، ماتت الحياة في عيني، ثم أطرق الرجل رأسه شاخصا إلى الأرض،

أما أنا لم أستطيع أن أتلفظ بكلمة واحدة، صبغني الرجل بأحزانه، حدثت نفسي قائلا: كم انك أيتها الدنيا وضيعة، وكم من عزيز أذاقتيه مر الأيام،وكم من حقير وضعتِ في يده الزمام.عَمَّ الصمت بيننا، انظر إليه تارة وأفكر في حاله وحال الدنيا تارة أخرى

طال الانتظار والرجل على موضعه ساكنا لم يتحرك، اقتربت منه وربت على كتفه، منادى يا عماه هون عليك، يا عماه يا عماه

لكن قد فارقت روحه الحزينة جسده العليل.

❊ ❊ ❊

كوب الشاي

تقعد على مقعد خشبي أمام لوح خشبي مستطيل يرتفع عن الأرض قليلًا بقوالب حجرية مثل التي تحد رصيف المشاة، جعلت هذه المرأة من تلك الأشياء منضدة متغلبة بذلك على يدها المغلولة بالفقر، تضع على سطحها بعض الأكواب الزجاجية والعلب البلاستيكية، وعلى الرغم من صفاء السماء واعتدال الطقس ألا أنك ترى غيمة حولها تكونت من بخار غليان الماء المتصاعد من الإناء،

obeikan.com

تتكأ برأسها على كف يدها تنتظر فرج الله عليها بزبون، تميل المرأة إلى السمنة ألا أنها فائقة الجمال ذات ملامح متقنة النحت على بشرة شديدة البياض تظهر حمرة الدم وخضرة الأوردة، وتضفى ملامح الحزن عليها جمالًا، تشخص المرأة في الأكواب وكأنها تحدثها، ظلت ثابتة على هذا الوضع حتى خيل لي أنها في سنة من النوم لولا أنني لمحت عينيها تطرف.

سألت نفسي؟، يا ترى من تكون هذه المرأة؟، وماذا تخفي؟، وكيف بامرأة تملك هذا الجمال تعمل في هذه المهنة!؟، ألا تخاف دنيا الشارع؟، لكن لا مجيب، طاف فكرى في أفق الخيال ينسج لها قصة، تخيلت أنها أرمل تعول أطفال لا يتعدى أكبرهم بضع سنين، تركهم زوجها لها فلم تعثر على رزق إلا من عملها هذا،

وأثرت المرأة أولادها على نفسها التي مازالت في ربيع شبابها، رفضت الكثير من طالبي الزواج حرصًا على أولادها، تفكر كثيرًا في احتياجاتها كأنثى لكن قلبها يكبح شهوتها مذكرها بأولادها.

وتخيلت أنها ربما تستتر خلف هذه المهنة، فلا توجد امرأة بمثل هذا الجمال لا تحاول استغلاله، ارجع بنظري إليها أتشخص ملامحها وجسدها بنظرة فاحصة فيغلبني ظني تارة ويؤنبني ضميري تارة أخرى، اقتحم

المشهد رجل وقف أمامها يطلب كوب من الشاي، ينظر إليها نظرات مريبة تشع بالطمع، نظرات تطعن جسدها،

يبادر المرأة بالحديث ليلفت انتباهها لكنها لم تبالي، تطرق رأسها أرضا كما كانت، يبدو أن المرأة فضلت أن تكون بدون ونيس أو جليس، رجعت أنا كما كنت أحاول نسج قصة أخرى لها ترضى نفسي، تخيلت أنها تجلس هكذا لتبيع المواد المخدرة لسائقي الحافلات مستغلة جمالها الحزين ونظرات الشفقة لتحجب الأعين،أو ربما تكون مغلوبة على أمرها وفى عصمة رجل يتواكل عليها، لا يرى غير نفسه فقط، تحتمل تلك المعيشة من أجل ابنتها وخوفا من شره المؤكد إذا تركته، أو ربما أنها صاحبة ثلاثة أولاد كلهم مرضى بالسرطان فاضطرت أن تساعد زوجها الذي يعمل طوال اليوم ليغطى مصاريف علاجهم لكنه لم يستطع فحاولت أن تبحث عن عمل فلم تجد غير هذه المهنة،

أو ربما تكون أكبر أخواتها عمرًا فضحيت بنفسها لتربيتهم وتعليمهم. تخيلت كل القصص ولم أدر من أمر نفسها شيئا، تلفت حولي رأيت الكثير مثلى ينظرون للمرأة نفس نظراتي كل منهم يؤلف قصة ترضى رغباته.

* * *

حفيد الترابي

هذا ضريح ومقام جدي الشيخ الترابي -رضي الله عنه- حكي لي أبي عن أجداده: بأنه كان أسمر البشرة، ذو وجه مستدير مكتظ بلحية بيضاء، قصير القامة، ممتلئ البدن، يمشي بتؤدة مع وجود عرج خفيف في رجله اليمنى، لا تفارق يده المسبحة، يمشى محاط بمريديه، الجميع يجري عليه لتقبيل يده،

كان له من الأولاد خمس بنات وولد واحد، أحبه بشده وحرص علي حسن نشأته، فحفظه القرآن والأحاديث النبوية، وتعلم كل كبيرة وصغيرة عن المذاهب والطرق الصوفية،

obeikan.com

تفوق احمد في علمه علي الترابي نفسه، وهو لم يصل إلي العشرين من عمره، احمد كان شديد الشبه بأمه، قمحي البشرة، وجهه طويل، طويل القامة، عريض الكتفين، سريع الخطوات،

داوم أحمد على مصاحبة أبيه في جميع رحلاته الدينية في مختلف أركان القطر، فالشيخ أصبح كهل، انطفئ من عمره سبعين عام، تزوج أحمد بابنة الشيخ الأتربي، وأصبح احمد شيخ الطريقة وهو في الخامسة والعشرين من عمره بعد موت الترابي، ولقب بالترابي الصغير،

رزق من زوجته بسبع بنات وولد، اعر اهتمامه بولده صلاح، الذي كان شديد الشبه بجده الشيخ الترابي، وهذا الشبه كسب له الاحترام والشهرة، وعلى الرغم من نشأته الدينية إلا انه اهتم بالعلوم الدنيوية، وعزم علي تعلم الطب، لم يبد اهتمام بأمور الطريقة، حزن أبوه علي خروج شيخ مَشيَخَة الطريقة من بيته بعد مماته، أصبح صلاح جراح، وتزوج وسكن المدينة، وأنجب الأولاد، وشغلته الحياة عن زيارة أهله، فقلت الزيارات،

مات الترابي الصغير، وقد أوصي بشيخ المشيخة لابن الشيخ الأتربي، عرفت الأولاد عائلتهم في الريف في حياة صلاح، كبرت الأولاد، ومات صلاح، وانقطع الأولاد عن السؤال، تزوجوا وأنجبوا، كبرت العائلة

وتكاثرت وانتشرت، وانقطعت كل صله لهم بالبلد فلا يعرفون غير اسمها والشيخ الترابي، من هؤلاء الأحفاد حسن الترابي، يشبه في ملامحه وتقواه جده الترابي،

لكنه لم يرزق بأولاد، كان فاحش الثراء واغني شخص في عائلته التي تبددت أحوالها فأصبح بها الغني والفقير، والتقي والشقي، فكان مقصد الجميع سواء كانوا طامعين أو محتاجين، لم يبخل علي احد، اهتم بتاريخ عائلته، وخاصة تاريخ الترابي الكبير، وعزم علي لم شمل العائلة والتعرف عليهم جميعا،

وأصبح كبير العائلة في المدينة، ثم قصد بلد أجداده، فوجد اسم الترابي على ضريح مهمل يزوره القلة من يريدون البركة والتبرك، واندثرت العائلة فمعظم أقاربه من سبط الترابي، يحملون ألقاب عائلات آخري،

اجتمع حوله الناس من أقاربه وغير أقاربه، ذهب لعائلة الأتربي التي ما زالت تحتفظ بمشيحة الطريقة حتى ألآن، وكان لهم في البلدة شأن عظيم وعظمة وخوف في صدور أهل القرية، أحبوه أهل البلد لكرمه وعطفه علي اليتامى والأرامل والمساكين،

عمر بيت الترابي الذي خرب، وجعل منه بيتًا عظيما، جدد مقام أجداده الترابية، وفي مدة قصيرة أصبح أشهر شخص في القرية بل في المحافظة كلها، صرف الكثير

من الأموال لأحياء طريقة أجداده، جذب إليها أشهر قراء القرآن والمفسرين والواعظين، نالت من الانتشار قدرا كبيرا، تعلم أصول الطريقة وأصبح فطن فيها، آمن حسن الترابي بالعلم والعمل بجانب الدين، فشعب متدين دون علم وعمل كزرع الزينة يملأ الدنيا جمالا لكنه يعجز عن تغذية البشر،

بني المدارس، والنوادي الرياضية والثقافية، ومهدت الطرق، وشيدت المصانع، تحولت القرية إلي مدينة، لكن عائلة الأتربي وشيخهم لم يعجبهم الحال، لأنه كلما ذكرت قريتهم ذكر حسن الترابي،

اجتمعت العائلة لمناقشة الأمر، تحدثوا عن شح التبرعات للطريقة منذ ظهور هذا الرجل، وعدم الرجوع إليهم والتحكيم بهم في القضايا العرفية التي تضخ عليهم بكثير الأموال، وغلو أجرة الأنفار لتنافر أغلبية الأولاد وانجذابهم للتعليم،

قال كبرائهم: يقل شأننا في قرية أجدادنا بوجود هذا الغريب، تغير أهل قريتنا، تغير سلوكهم منذ ارتاد أولادهم المدارس، بدوا يناطحونا في قراراتنا، ونحن نحتاج جهلهم أكثر من علمهم، كل خلق لما ميسر له، وهم خلقوا للعمل، ونحن خلقنا للعلم وتنظيم العمل. وافق اغلبهم علي إبعاد حسن الترابي عن طريقهم وعن

الطريقة وعن قريتهم، اقترح شبابهم طرده من القرية، لكن يقف أمامهم حب الناس له، فرض الكثير من الاقتراحات، واجتمعت الآراء علي مكيدة خطت بأيد كبرائهم، تخلصهم من هذا الرجل دون تدخل منهم، نبهوا علي أفرادهم أن يعاملوا الناس بود ورحمة، ويسألون عن حوائج أهل قريتهم ويقضونها لهم، وأن يجندوا من يشيع بين الناس بأن هذا الرجل يتقمص الدين ويتخذه وسيلة لنيل رغباته، واسألوا الناس خبثًا: من أين له بهذه الأموال!

ولماذا يبذرها بتلك الطريقة!

وازعموا بأنه يتاجر تجارة حرمها الله، ويبني ويعمر قريتكم من أموال حرام، وإن مسجدكم الكبير هذا، بني من مال حرام، فكيف تقبل فيه صلواتكم!، عرفوهم بان أولادهم ستنبت بمال حرام ومن ينبت من حرام فالنار أولي به، لا تيأسوا الحديث فأنه ذي اثر عظيم، شيعوا بأنه لا يستحي من نسائكم، واشتروا من تتهمه بذلك،

ومن يزعم بأنه يحب المرد، ستجدون من يصدقكم، فأهل قريتنا يجيدون الاستماع، يفتقدون للفهم، ثم اتركوا للناس كتابة النهاية.

❊ ❊ ❊

اختفاء

التف حول رقبتي كابوس كاد أن يخنقني لولا أنني استيقظت صارخًا، جلست وتشهدت وحمدت الله على أنه كابوس، ناديت على زوجتي لتلحقني بشربة ماء، أرطب بها صدري لكنها لم تجب، عاودت النداء دون جدوى، نهضت غاضبًا للبحث عنها في الشقة، فتشت في جميع الحجرات لكن ليس لها أثر، اشتطت غضبا ونويت الشر لها، لمحت الباب مواربًا، فزعت وتحول غضبى إلى خوف وقلق، قلقت على أولادي وزوجتي وممتلكاتي،

obeikan.com

الممتلكات لم تمس، كل شيء في مكانه إلا أولادي وزوجتي، ارتديت ما رأت عيني من ملابس غاض البصر عن الهندام، نزلت الدرج فاستوقفني رؤية باب شقة جارى مفتوح، تعجبت لرؤية ذلك، فمالك هذه الشقة شديد الحرص والوسوسة، زعقت عليه فلم أسمع سوى صوتي، خشيت الدخول ومضيت في نزول الدرج، أصابني الذهول برؤية جميع أبواب الشقق مفتوحة،

ظللت أنادى بالاسم على أصحابها دون إجابة منهم، خرجت من بوابة البيت استغيث بمن في الشارع، الشارع خالي من البشر والدكاكين خالية من مالكيها وزبائنها، فزعت وصرخت، أصبحت كالمجنون أدق جميع الأبواب،

قعدت أمام البيت شارد الذهن، قليل الحيلة، أصبر نفسي بأنني مازلت في هذا الكابوس المزعج، حل الظلام وأنا أطوف في الشوارع بحثًا عن كائن حي،

رجعت إلى بيتي لاحتمى بين جدرانه، خائف من المجهول، منتظر حدوث شيء لا أعلمه، أتساءل أين اختفي البشر ولماذا بقيت أنا!؟

تمنيت النوم لكنه استعصي علىَ، انظر من الشرفة، لعلي ألمح أحد، استأنس بصحبته، استفسر منه . خلق الإنسان ومعه التكيف، فقد أعتدت هذه الحياة،

وأصبح كل شيء ملكي، توجت ملك لنفسي وحاكم ومشرع ومنفذ، فلا وجود للشر والخير، والفقر والغني، نعم افتقدت أولادي لكن سرعان ما نسيتهم، وشعرت بالأمان بعد الخوف، وبالأنسة بعد الوحشة،

تغيرت ملامح الشوارع من القبح إلي الجمال، من الفوضى إلي النظام، اختفت الأعين، إذا، فلا داعي للهندام، فأطلقت لحيتي وأهملت تهذيب شعري،

أصبحت أسير في الشوارع محتفٍ كأنني في بيتي بل تخليت عن ملابسي وأحسست لأول مرة بلذة المشي عاريًا، داومت علي هذا الحال برهة من الزمن،

افعل ما أريد وقتما أشاء، انظر إلي جسدي العاري المخدوش بالجروح والندوب، أتساءل متى وأين تكونت تلك الجروح!؟، ولماذا لا تؤلمني!؟

أتأمل وجهي، لمن يكون هذا الوجه المشوه بالأوساخ، والبدن المتعفن، وهذا الشعر الأشعث والذقن الكث!؟

هيئتي تبدو كمتشرد، لكن لا يهم طالما أعيش في هذه الدنيا وحيدًا، فما يكون التجمل إلا نفاق نرضي به البشر، فالفرد يصنف بملابسه، والآن لا يوجد بشر، فأنا كل البشر، أخذتني قدمي إلي لا منتهي،

فتاه المسكن من ذاكرتي، لكن لا يهم، فالشارع أصبح بيتي، أنام وأغوط في أي مكان، بدأت أضعف، ولا اقو علي الترحال، وأرى أشياء غريبة، كائنات تشبه الإنس تظهر أمام عيني، يبدو أنها كائنات من الفضاء احتلت الأرض،

لم ينظروا لي هكذا!؟، يقذفونني بأقبح السباب، يسخرون مني، ألم يعلموا أن هذه الأرض ورثتها عن البشر!؟، وأنا الآمر هنا،

أصيح، أثور، لعلهم يخافوا أو يكفوا لكن كثرتهم غلبت شجاعتي، ووقاحتهم فاقت وقاحتي، حتى أطفالهم يركضون خلفي ويرمونني بالحصى، أأخذتهم جنة؟،

لأول مرة أشعر بالخوف، مكثت في مكان خرب، احتمي بآثار جدران ما زالت تقاوم السقوط ، الملم بقايا الطعام، وأتقبل بعضه من ذوي العطف، يئست هذه الحياة، أرغب الرجوع لبيتي،

أتجول في الشوارع، أسأل هذه الكائنات عن بيتي، وأخيرا، وجدت من يملك الرحمة منهم، وأخذوني إلي قصر ضخم البنيان، يقوم بحراسته نفس الكائنات، وأدخلوني في غرفة واسعة يسكنها بني البشر،

سعدت برؤيتهم بشدة، لكن تبين أنهم غرباء السلوك والمظهر، فاقدي العقول، صرخت وطلبت الخروج من هذه الغرفة، وترجيتهم في الخروج، والعودة لبيتي، أو الشارع،

سجنوني الغرباء في هذا القصر وأقنعوني بأنه بيتي الدائم.

❊ ❊ ❊

obeikan.com

حب هاجر

تقف علي منصة القاعة، تلقي علينا محاضرة الأسبوع، تمتلك نبرات صوتية رقيقة، خفيضة النغمة، تضفي علي المحاضرة هدوء وانسجام، لم أتغيب عن درس لها قط،، دائمًا التزم القعود في مقاعد الصفوف الأولى لأتمكن من كمال رؤيتها،

هي في العقد الرابع من العمر لكن نضرة وجهها تخدع الناظرين، أتفرس في جسدها الفارع، حسن القوام، وتناسق ألوانها، وبساطة حُليها، حتى خطواتها تبعث في النفس السكينة، سبحان خالق هذا الجمال،

obeikan.com

يرتبك كياني برؤيتها ويحتلني إحساس لا يوصف، اشعر بأني أحبها، لكن لا أدرى ماهية هذا الحب!؟،

لكن كل ما اعرفه إني أحبها، حب جعلني أحقد وأحسد، أحقد علي زوجها، وأحسد أولادها، كم تمنيت أن احتل مكان واحد منهما،

لبثت علي هذا الحال شهور، أتوجع وأتألم بكتمان حبها، اعرف إني مخطئ ومذنب في نظر الآخرين، فكيف أحب امرأة بعمرها،

لم أجرؤ علي التحدث في هذا الأمر. انتهى الجزء الخاص بها من محاضرات، ويشتاق قلبي لرؤيتها، فعزمت الذهاب لمكتبها متحججًا بعدم فهم بعض مما ألقت علينا، توجهت إليها وقلب يخفق نبضانا شديدًا، ووجهي ترتفع سخونته، وبدني يرتجف، وقفت أمامها وهي جالسة علي مقعدها الجلدي أمام مكتبها الأنيق، تقرأ في مجلد ضخم،

نظرت إلي وتبسمت، وسألتني كيف تستطيع مساعدتي، في هذه اللحظة نسيت الكلام، وعجزت شفتي علي الحركة، كررت سؤالها ثانية، حاولت أن أحرك فمي لكنني فشلت،

فاضت عيني بالدمع، وجريت للخارج دون النظر إليها، خرجت من الكلية، وتوجهت لغرفتي، وظللت أبكي ولا أعرف سبب البكاء، كلما بكيت شعرت بالارتياح،

استغرقت في النوم واستيقظت والدموع مازالت تطفر من عيني، تشتت ذهني، خجلت أن أذهب إلي الجامعة وأقابلها مصادفة، قررت عدم الذهاب، وشغلت نفسي بالقراءة، وترتيب غرفتي، وبالتجول في الشوارع،

بعد بضعة أيام، فوجئت بزميل يبلغني بأن الدكتورة هاجر تسأل عني، ويجب التوجه إليها، وزاد من ضيق صدري بأنه خبرني بشدة غضبها في سؤالها عني، ثم سألني عما فعلت؟،

لم انطق بحرف ومشيت سارحًا متسائلًا لماذا غضبت؟، وكيف تعرفت علي وأرسلت تستدعيني!؟، قررت أن لا اذهب ثم تراجعت،

أجلت الذهاب إليها، وإذ بنفس الزميل يقابلني ويؤكد علي الذهاب فورًا للدكتورة هاجر، فهي تنتظرني، قصدت مكتبها، طرقت باب غرفتها، نظرت إلي من منبت رأسي لخنصر قدمي،

ابتسمت وسمحت لي بالدخول ومن بعده بالجلوس، وقامت من مقعدها متوجهة لغلق باب غرفة المكتب، وقعدت بالمقعد المقابل لمقعدي، ابتسمت وقالت:

ما حكايتك، وأنا مطرق الرأس شاخصا في السجادة، طلبت مني النظر إليه، لكنني لم استطع، بصوتها الهادئ قالت: غضبت عندما غادرت غرفتي هربًا، وأرسلت في طلبك لتوبيخك، لكني رجعت نفسي لعلك خجلت من طلب شيء ما، احكي لي وحدثني عما في نفسك،

رفعت بصري نحوها على استحياء، ما زالت باسمة، ونظراتها تخدرني، ضحكت وقالت:

انظر إلي ولا تخجل فأنا كأختك الكبرى أو اعتبرني أمك، يا ليتك كنت أمي هكذا حدثت نفسي،

سألتني عن اسمي وعمري وهوايتي، شجعتني علي محادثتها، أجابتها، ثم تناولت حقيبتها، فتحتها، أخرجت منها ظرف ورقي مغلق، ومدت يدها نحوي، تطلب مني أخذه، ثم قالت: لا تخجل إذا احتجت المزيد.

يا نفساه!، أأنا في نظرها سائل ومحروم!

يا ليت لم آتي، يا ليت كنت من الأموات، وقفت وقلت، أنا لست بمحتاج، طلبت مني عدم الخجل وأخذه،

شكرتها بهمهمة، وخرجت، نادت عليَ، واصلت المضي في طريقي، لا أري من طريقي غير تصارع الأفكار في عقلي، أتساءل، لم رأتني بهذه الصورة؟

أانتبهت إلي شحوب لون ملابسي وحذائي البالي؟، ألم تر تفوقي الدراسي؟،

يوم بعد يوم، تتناقص أحزاني، فمهما كانت الصدمة، فالنسيان علاج لها، كلما حاول قلبي تذكرها، ذكرت نفسي بكرامتي.

آن أوان الامتحان، ثلاثة أساتذة تتوسطهم الدكتورة هاجر، في نفسي إتقان بأنها ستعاقبني في درجات المنهج المقرر، دخلت دون تحدث،

أمرني أحدهم بالجلوس، مالت علي أذن أحدهما تحدثه بصوت غير مسموع، قهقه،

نظر إلي بتفرس، شعرت بغيظ علي أثر ضحكاته، بدت علامات التوتر تعلو وجهي، ظلوا يتبادلوا الحديث بعضهم مع بعض، وأنا منتظر، ثم أذنت بالانصراف دون سؤالي، ذكرتهم بأنني لم اختبر،

فجأة قطب أحدهما وجهه، وكشر عن أنيابه، وأمرني بالانصراف،

أقنعت نفسي بالصبر، فهذا العام الأخير، سأتخرج، سأذهب لأمي وأبي لأخبرهما بتفوقي، سأصدق الوعد معهم، أصبحت أول الكلية، الكل يبارك، ممن أعرف وممن لا اعرف، يبشرونني بتعييني معيد،

لا ارغب في التعيين، كم تمنيت أن تأتي لحظة تخرجي، أرغب في الهجرة، الهجرة منها، ومن حبها، نعم ما زالت أحبها،

رغم قتلها لكبريائي، حجمت عن التعيين، أصبحت في نظر الجميع مجنون. في حجرتي، أقرأ، أرجع لمحاضراتها، أتذكر وقوفها على المنصة، ابتسامتها، خطواتها، الحديث في حجرة مكتبها،

أسمع صوت طرقات على الباب تخترق أذني، افتح الباب، أجدها واقفة أمامي مبتسمة، أفي حلم أنا!؟، تستأذن الدخول، تدخل ناظرة إلى جدران غرفتي الصغيرة، والسرير الملاصق للشباك، والمكتب المختفي سطحه بالكتب، والمشعل وما عليه من مواعين، والمرحاض الذي لا يسع شخصين، وأنا مازلت واقفًا مذهولًا،

قعدت على مقعد خشبي أمام المكتب، تبادرني الحديث، وهي شاخصة في الكتب، تسألني:

هل قرأتهم جميعا؟

أومأت برأسي، تبارك لي علي التفوق كما توقعته لي، تختفي ابتسامتها، ويظهر محلها ملامح الجدية، تطلب أن أقبل التعيين، أسكت وانظر لخارج الشباك، تعيد نفس الحديث، أرد بالرفض،

تظهر علامات الحزن في وجهها وترجوني بقبول التعيين حرصًا على مستقبلي، أصر علي الرفض، يملأ وجهها الحزن وتقول:

اقبل التعيين من أجل خاطري، اضطرب، ويشل تفكيري، تعيد جملتها ثانية والعبرات في عينيها، ضعفت أمامها وسألتها: أهذا إشفاق علي حالي؟، أجابت: لا، أنه حقك، إذا، لماذا تهتم بي؟،

صمتت وشخصت أرضًا، هربت من الحوار بسؤالها عن أسرتي، أجبتها بأنني وحيد، تعجبت وقالت: وماذا عن والديك؟، أجبت:

توفيهما الله منذ خمسة أعوام، سألت: ومن معيلك، قلت:

الله ثم نفسي، ومعاش تركه أبي من بعده، ألحت في طلبها حتى قبلت التعيين، فمن أنا كي أرفض لها مطلب!،

ارتسمت بسمة علي وجهها، وغادرت المكان وبقيت صورتها معي. غزلت الأيام شهورًا، والشهور نسجت بضع سنين، وسرعان ما تحولت الزمالة إلي صداقة، تجرأت وذكرتها بيوم الاختبار الشفهي، وقهقهات الدكتور الذي أغضبتني كثيرًا،

قالت بأنه ضحك لقرب شبهك بزوجي، تحدثني كأنها تحدث نفسها، خبرتني بعدم رزقها بأولاد، وإنها أرمل، ابتسمت بسماعي الخبر، بدون تفكير طلبت زواجها،

أحمر وجهها، اضطربت، وقفت، ظهرت ملامح الغضب، قبل أن تنطق كنت قد تركت المبني، يبدو إني تسرعت، وتوهمت صداقتها حب لي،

انقطعت عنها وعن أي مكان يحتمل أن أراها فيه، بدت هذه الأيام كئيبة ثقيلة الحركة، هذه عادتي فأنا مفضل للهروب، جبان، عاجز عن المواجهة، انسحب من الجولة الأولي،

سأذهب لها مرة أخري، سأطلب الطلب نفسه، وليكمن ما يكون. في حجرة مكتبها، ادخل متحدي الخجل والخوف، أقعد أمامها دون استئذان، انظر إلى عينيها المتعجبة والمستنفرة لجرأة الاقتحام،

قلت: هل تتزوجيني؟، قالت وماذا عن كلام الناس، كأنها بهذه العبارة وافقت،

وقفت، ضحكت، تعجبت قائلا:

فليغور كلام الناس إلى لا رجعة، ومهما طال الكلام وكثر، سيأتي الوقت الذي يقل فيه الحديث،

مكثت معها أسعد خمسة أعوام في حياتي، وها أنا ناهز عمري السبعين، وما زالت في قلبي، مات جسدها وروحها تسكنني.

❊ ❊ ❊

obeikan.com

تحت التراب

بصوت متهدج منكسر يقول: أَفِقْ يا مطاوع، افتح عينيك، انظر إلىَ، لا تغمض، ربت على خده، يضطرب، يكرر كلماته:

أَفِقْ يا مطاوع...جَثا عَلَى رُكبَتيهِ، ورفع رأس مطاوع على يسراه، والتقط زجاجة مياه من جيب سرواله، صب الماء على وجهه ماسحاً إياه ثم مسح على شعره ورقبته، وضع فمه على شفتي مطاوع الباردتين محاولاً أن ينفخ بينهما غاز الحياة،

obeikan.com

يضغط على صدره مرات ويعاود النفخ تارات، لكن مطاوع قد شَخَص بصره، لا يرى غير صورة شاحبة لصديقه بيشوى، تندى وجهه بالعرق، وانتابه رعشة شديدة في بدنه النحيف.

يفزع بيشوى مكرراً محاولاته، لكن مطاوع يشرق وجهه باسماً، ويمضى بذهنه شارداً إلى دنياه الماضية، فيجد نفسه في بيته محاط بأمه وأخواته الصِغار وزوجته وطفلته، يجد نفسه أمام أمه تنظر إليه وكأنها تتأمل ملامحه لأول وهلة، ظلت تحدق فيه طويلا حتى ترنحت الدموع في مقلتي الأم الحزينة، سألته وتوسلت إليه بصوتها النحيب وبجسدها المرتعش عدم الرحيل، فهو لها الدنيا وما فيها، رب البيت، الابن، الصديق.

تنادى طفلته عليه طالبة الذهاب معه، أما زوجته لم تستطيع الكلام فقد غلبها الكمد وكتم صوتها فلم تتحدث إلا بعينيها.

يمعن مطاوع النظر في كل منهم بنظرة تبوح بالحزن تارة، وبالضعف تارة أخرى، كاد حزنهم ودموعهم أن يغيرا عزيمته ويقول أهلي ونفسي.

دني من أمه وانحني ليمسك يدها ولثمها قائلاً: لا تبكى يا أمي، ليس بيدي حيلة- يبتسم محاولاً أن يخفف من حزنها- هوني عليك يا أماه حتى أرحل وانأ مطمئن،

يمسك خدها بلطف ويقول: أين الغمازتان؟، أرغب في رؤيتهما، تبتسم الأم ولكن قلبها يبكى.

يتقدم إلى أخواته وزوجته وطفلته، يلثم جبهة كل منهم، أراد أن يطيل الجلوس لكن تخلل إلى أذنيه صوتِ جهور قائلاً: يا مطاوع سوف نتأخر إذا لم تتحرك، فعرف انه صوت "بيشوى"، رفع حقيبته، مشى بخُطًى مُتئِدة صامتاً، وقبل أن يخرج من الباب التفت برأسه نحوهم ينظر في كل منهم مرات،

حاول أن يسرع الخطو ليخرج من الباب، لكن عقله وقلبه كانا بين جذب ودفع، أحدهما يسرع والأخر يبطئ، وبمجرد أن خرج من الباب امتلأت عيناه بالدموع،

يتحدث بيشوى عن زيارته ويسرع في الحديث، لكن مطاوع ظل أسير الفكر، يفكر في عائلته وتجمعهم حول مائدة الطعام، يسترجع حكايات أمه ومناكفة أخواته وابتسامة زوجته ولعب طفلته.

فجأة، يستيقظ من غفوة الأفكار على قبضة يد تمسك يده وتدفعه إلى الأمام وصوت بيشوى العالي يقول : أسرع، القطار يتحرك، يجرى الاثنان خلف القطار بأقصى سرعة حتى يلحقاه، ركبا القطار وتنفسا الصعداء.

القطـار مـزدحم، المقاعـد مهدمـة، الأجسـاد متلاحمـة لا يفصـل بينـهم سـوى الملابـس، لكـن مطـاوع خـدر غيـر مبالي بما حوله يصعب التخمين هل اعتـاد علـى ذلك أو كان مشغول الذهن.

بعـد ثـلاث سـاعات يصـلا الصـديقين ويتجهـا نحـو المعسكر، يضحك مطاوع متناسي الهموم، فالوقت كفيل أن يجفـف دمـوع البـاكي وأحـزان المغمـوم. وبمجـرد نزولهمـا أرض المعسـكر أسـتدعى الصـديقين لمكتـب ضـابط المعسـكر، ارتبـك كليهمـا وتسـاءلت الأعـين عـن السبب،

توجها إلي المكتب ، وقفا أمام الضابط وقفة ثابتـة ، يقعد الضـابط علـى مقعـده يشـخص إليهمـا ويتـنفس دخـان سيجارته، ظل ملتزم الصمت برهة ثم وقف وقال: لقد تم اختياركمـا وتكليفكمـا بعمليـة هجوميـة علـى احـد مواقـع العدو غدا، ينظر في ساعته ويقول: أمامكما ثلاث عشرة ساعة من ألآن،

ينظر الصـديقان إلـى بعضـهما نظرات مضـطربة، يقطـع نظراتهما صـوت الضـابط يأمرهمـا بالانصـراف، هرول كل منهما نحو الخارج، تحتار في ملامحهما متسائل هل هـذه الملامـح تبـث بالسـعادة أم بـالحزن بالشـجاعة أم بالضعف!؟،

بادر بيشوى الحديث إلى مطاوع محاولا أن يكسر حاجز الصمت الذي خيم عليهما ويذكره بأمنيتهما النصر أو الشهادة. نَفَّسَ مطاوع عن نفسه بانشغاله وقلقه على أسرته لما كونه العائل الوحيد، حاول بيشوى طمأنته بعودتهما منتصرين ومنحهما إجازة استثنائية، اقترب الخليل من الخليل قائلا: عدني الاهتمام بأهلي إذ أدركني الموت، عانقه بيشوى ودعا الله أن يرجعا بسلام أمنين.

يسود الظلام في ليلة شديدة البرودة، يجتمع الضابط بثلاث عساكر غيرهما، يشرح لهم مخطط وتعليمات المهمة، يقترب الضابط منهم، يذكرهم بالوطن وبالكرامة وبالشرف، ينطق بالشهادة مرددين خلفه، يصافحهم، ينظر في ساعته قائلًا: حان الوقت، يتحرك الجميع اتجاه قناة السويس عابرين إياها بمركب مطاطي، يصعدوا خط بارليف، يصنعوا ثغرة في الأسلاك الشائكة، يجرى الضابط وخلفه العساكر بين الخنادق والمتاريس.

بعد ساعتين من الجري المتواصل المصحوب بحذر، يصلوا إلى بناية أسمنتية شديدة الحراسة، انبطحوا الرجال على وجوههم رافعي الرأس، يراقب الضابط الموقع بمنظاره ويهمس للعساكر قائلا: هذا الهدف المراد، ثم أخرج خريطة من حقيبته موضحًا بها أهمية الموقع كمحطة إشارات عسكرية من والى مركز القيادة الإسرائيلية، وشرح لكل فرد مهمته المحددة

وأمرهم بسرعة المغادرة إلى الجانب المصري فور إتمام المهمة،

زحف الصديقان نحو الجهة الشرقية للبناية حتى وصلا إلى باب محكم الغلق، يفتح مطاوع الباب ويدخلا البناية، يتجه مطاوع إلى الطابق العلوي أما بيشوى كلف بالطابق السفلى، يضع كل منهما المتفجرات في كل ركن من أركان البناية ويضبطا ميعاد الانفجار،

توجها نحو الخارج، ينظر بيشوى في ساعته قائلًا: باقي من الزمن المحدد عشر دقائق، وكاد أن يتحركا حتى لمحهما عسكري حراسة يسكن برج مراقبة الموقع، يضغط على جرس إنذار، يهيج من بالموقع، يرمى الرصاص نحوهما رميًا وتقذف القنابل عليهم بدون عدد، يصاب مطاوع برصاصة تسقطه أرضًا، يكتم صرخاته ويئن ويتأوه، يفزع بيشوى ويحمله ويجرى به حتى وجد خندق يحميهما من وابل الرصاص.

يرجع مطاوع من دنياه الماضية، يهمهم لبيشوى بصوت غير مفهوم، يقترب بيشوى بأذنه من فمه مطاوع لعله يفهم كلماته، يترجى مطاوع صديقه أن يهرب ويتركه، يرفض بيشوى سماعه عازما أن لا يتركه مهما حدث، يبسط مطاوع يده لبيشوى فيقبض عليها ثم يقول: أهلي

ليس لهم غيرك بعد الله، فجأة تسكت الكلمات وتشخص العينان وتخرج الروح الطاهرة إلى ربها

يصرخ بيشوى صرخات صامته، يهز جسد مطاوع، يحاول مرارا وتكرارا أن يسعفه لكن لا جدوى، يقترب صوت طلقات الرصاص، ماذا سيفعل بصديق عمره، يتركه ويذهب في سبيله أم يصاحبه العودة؟، يفرض الواقع على الإنسان شروط لا تناقش،

لم ير غير أن يردم عليه تراب الخندق خوفا على جسده من همجية العدو، ظل يكوم عليه التراب حتى اختفى جسده، يجرى بيشوى ودموعه تسبقه حتى وصل إلى الجانب المصري.

وبني الدهر من الأيام عقود، ومطاوع يرقد تحت التراب، لا أحد يعلم له مكان، حتى بيشوى ظلمة الليل أجهلته مرقده، تبكى أمه في كل صلاة وتدعو الله أن يجمعها به، فكان أقصى أمانيها أن تدفن معه، تموت الأم وتمضى الذكريات وتضعف مع الأيام، تتغير الأحوال، وتخرب الأرض الصالحة وتعمر الأرض الخَرِبة، تشق القنوات وترصف الطرق، يحفر العمال بعزم حتى يفاجئ الجميع بصياح على جثة،

التف الجميع حولها ورفعوا ما تبقى عليها من تراب، يصمتون برهة ثم يهتفون الله أكبر، فقد رأى الجمع

رجل بملابسه العسكرية تؤطر رقبته قلادة تعريف الجندية وفي جيبه بطاقته الشخصية، أخرجت الأرض أمانتها بدون عطب كأنه حفظت البارحة، انتشر الخبر في البلاد حتى وصل لابنته التي لا تتذكر ملامحه، ابتسمت دامعة وقالت: أوصتني جدتي بأن يدفن ابنها معها حين يرجع، أخيراً يتقابل المشتاقون تحت التراب.

❊ ❊ ❊

obeikan.com

تخمة الأقفاص

زقزق مملوك فرحًا بفجر يوم جديد، ولبث يرفرف بجناحيه، خرجت مملوكة علي أنغامه، تبتسم وترد عليه بنغم أجمل لحن، بشرته بأول بيضة لهما، توجه إلي العش الخشبي ليري البيضة، يرقد عليها تارة ويكوم حولها نشارة الخشب تارة أخري، يخرج ليلعب مع حبيبته، يطعمها، يقبلها، يتبصر السماء ويحمد الله علي فضله،

obeikan.com

اقبل عليهما المالك بصفير عالي ملحن، وظل يتأملهما ويلاعبهما، يقلد مملوك صفير المالك، يبتهج المالك ويذهب لإحضار الفطور، واستبدال ماء السّقايةُ بأخر نظيف، ينظف أرضية القفص من الفضلات، ثم يفتح العش ليتفحصه، فوجئ بالبيضة، غمرته السعادة، تمر الأيام مسرعة ويكثر البيض، ويفقس جميعًا، ويمتلئ القفص بطيور بهية الطلعة، يتفوقوا في الجمال علي الأبوين، يحرص المالك علي راحتهم، يطعمهم خير طعام وينظفهم خير نظافة،

أصبحت الأفراخ شباب مفعم بالنشاط والحيوية، منهم من سئم هذه الحياة، ومنهم من رضي، ومنهم المذبذب بين ذلك وذاك، لكن أكثرهم تمردًا كان على ، كان أنحلهم جسمًا، وأوسطهم جمالًا، لكنه استطاع أن يجذب المالك له بشدة ذكائه وسرعة بديهته، يقلد الأصوات ببراعة ويقوم بحركات بهلوانية رشيقة، ويصطنع السعادة أمام صاحبه لكن يبقى قلبه ملئ بالحزن ويزداد حزنا كلما رأي طائر يطير تحت السماء، وباسط جناحيه علي الهواء،

كلما تكلم في الحرية كبح جِماحهُ أباه، يذكره بالنعيم والجنة اللذان يتمتعوا بهم، يذكره بحب المالك لهم وحرصه عليهم، يقارنه بين طيور الشارع وأجسامهم الهزيلة، وسعيهم علي فتات الطعام من الشروق إلي

الشفق، تذكره أمه بأن بقائهم معًا خير من الحرية وأنهم خلقوا للزينة، يلومه إخوته لتمرده علي كل هذه النعم، وقف المالك أمام القفص مع صديقه، يتفرس في ملامح الطيور،

يشير المالك علي الأب والأم ويمدح فيهما وفي جمال خلفتهما، وأنهم مكسب لأي مشتري، تفاوضا الصديقين علي السعر وتم البيع، ذهب المشتري لجلب قفص لنقل ممتلكاته الجديدة، تحولت السعادة في لحظات إلي كآبة وحزن وبكاء ونحيب، الجميع يبكي إلا علي ثبت صامتا، يكتفي بالمشاهدة، جمعهم الأب حوله وقال:

كنت أتمني أن لا يأتي هذا اليوم، لماذا افقد دائمًا من أحببت، لكن ليس لنا حيلة، فهو مالكنا وربيب نعمتنا، هنا.. انفجر علي كالبركان وصرخ قائلًا:

أمر عليك يوم كهذا؟ فأجاب الأب: نعم يا بني وكنت في مثل عمرك عندما بيع أبي وأمي، لكن المالك كان بي خير راعي، وادخل علىَ أمك لتؤنس وحدتي، ورزقت بكثير من البنات والبنين، دهش علي وقال: أرزقت بغيرنا سابقًا؟، وأين هم الآن يا أبي؟

لم ينتظر رد والده وقال: هم اليوم في أقفاص يباعوا ويشتروا، وأنت هنا تدعوني بألا اكفر بالنعم، المأكل والمشرب بدون حرية ليست نعم، أن نسجن طيلة الحياة

في قفص ليست نعم، أن يكون رزقنا في يده ليست نعم، أن نقيد في الاختيار بين ثلاث أطعمة ونحرم من متاع الأرض ليست نعم، أن نباع ونشتري ليست نعم،

وتتحمل كل هذا من أجل حبك للمالك فقط، المالك هذا يحبك لمتعته فقط، فالعيش تحت السماء هزيل البدن خير من تخمة الأقفاص. جاء المشتري ووضع الأبوين في قفصه وغادر المكان، لم يستسلم علي أستغل مهارته وذكاؤه في فتح مزلاج الباب، دعا أخوته للهروب، منهم من آبي، ومنهم من وصمه بالجنون،

طار وبسط جناحيه، رأى الأرض حقيرة من السماء، فالبني أدم صغير، والبروج صغيرة، والشجر صغير، يطير متى يشاء، يأكل متى يشاء، يتذكر عائلته، عمرهم الضائع في الوهم،

يصرخ ويقول ملعونة تخمة الأقفاص . القفص الجديد مكتظ بالطيور لكنه فسيح، يسمح لهم بالطيران، قصد مملوك ومملوكة ركن في قاع القفص تجنبًا للاختلاط، ظل الحزن صديقهما، ويوم بعد يوم يتناقص الحزن ويتكيفا مع المكان ومالكهما الجديد، يحب مملوك مالكه الجديد، يزقزق فرحًا بفجر يوم جديد، ولبث يرفرف بجناحيه،

خرجت مملوكة علي أنغامه، تبتسم وترد عليه بنغم أجمل لحن، بشرته بأول بيضة لهما، توجه إلي العش الخشبي ليري البيضة، يرقد عليها تارة ويكوم حولها نشارة الخشب تارة أخري، يخرج ليلعب مع حبيبته، يطعمها، يقبلها، يتبصر السماء ويحمد الله علي فضله.

❊ ❊ ❊

obeikan.com

الشيخ عبد الهادي

أَوَى الشيخ عبد الهادي إلى فراشه بعد يوم طويل شاق قضاه بين مكاتب الموظفين، وارتمى على سريره صارخا من نار تأكل في قدميه، يضغط علي عقب قدمه تارة ويدلك قدمه تارة أخرى قائلاً: اللهم أنت حسبي.

تدخل عليه زوجه الحاجَّة رقية قائلة: يَا رب تكون وفقت اليوم في مهمتك

نظر إليها بحزن ومَطَّ شَفَتَيْهِ ولم ينطق بكلمة

obeikan.com

كررت عليه السؤال

أجاب:كالعادة اليوم كالبارحة

سألته عن السبب؟

أجاب: العلم عند الله،

سألته وعيناها تغرق بالدموع:

ماذا سنفعل وما تركه لنا ابننا عليه رحمة الله - في تلك اللحظة قطعت الدموع حديثها، وسكتت هنيهة ثم أعادة قولها:

وما تركه لنا ابننا من مال قد اقترب من الانتهاء،

قال: الله معنا، وان شاء الرحمن سأذهب غدا

قالت: لك شهر تغدو وتروح، الم يرحموا شيخوختك؟

نظر إليها صامتا برهة وقد وجد أن الحزن أَسْبَلَ ستائره على وجهها، فقال لها محاولا أن يخفف عنها: الله معنا، فقد وعدني الموظف انه سوف يساعدني غدا عند استكمال الأوراق-ثم زَفَرَ مَغْمُومٌ -التي لم ولن تستكمل،

توسد الشيخ مخدته غارقاً في همومه ولم يمض عليه دقائق حتى غلبه النعاس، وإذ لا يسمع سوى غطيط

obeikan.com

مرتفع لم يعتاد إخراجه، وكأن بدنه يخرج ما به من ألام وأوجاع، اقتربت منه الحاجة رقية ولبثت تتأمل فِي وجهه كأنها تراه للوهلة الأولى، فترى بشرته قد موجتها التجاعيد، وعينه قد طوقتها الهالات السمراء، ولحيته قد صبغها البياض، همهمت كأنها تحدثه قائلة: لقد هرمت في شهر ما لم يحدث في عمرك كله،

حاولت أن تنام لكن هجمتها الذكريات سارقة النوم من عينيها، ظلت تتقلب في الفراش على جنبها الأيمن ثم الأيسر ثم على ظهرها، لكن عينيها لم تغمض، فلم تشعر إلا بضيق يكتم أنفاسَها ويثير بكاؤها، ظلت تبكى وتتذكر ابنها بجده وهزله وحركاته وحديثه وحالها وحال زوجها، أشتد نَحيبها فترة من الزمن، سندت رأسها على المخدة فأسبلت جفونها وتركت الهموم مؤقتا،

نامت الحاجة رقية وكأنها تجرعت البكاء ليُسكن ألامها، لم يمر على سكونها ساعتان حتى استيقظت على تقلبات الشيخ عبد الهادي في فراشه، نهض وجلس على السرير يتثاءب ويتمطى وهى تنظر إليه بشفقه داعية في دخيلة نفسها أن تكون هذه المرة أخر رحلة من رحلاته اليومية،

نهض الشيخ مجبراً سائم الذهاب إلى هذا المكان، ينفصل عن الواقع برهة ويستذكر غرفة امتلأت

بمجموعة من المكاتب المتراصة بجوار بعضها، تحمل على أسطحها تلال من الملفات الورقية يختفي خلفها الموظفون، دام على هذا الحال حتى طرق أذنيه صوت زوجه تحثه على القيام، قام الشيخ ومشى بخطوات وئيدة متوجهاً إلى مصلحة المعاشات، بعد معاناة الصعود للطابق الخامس،

وصل إلى المكتب المراد، توجه إلى الموظف المختص فوجده حاشر رأسه في ملف ملئ بالأوراق، أَلقَى عليه التحية لكنه لم يردها، التمس الشيخ له العذر وحدث نفسه قائلاً: يبدو انه لم يسمعها لانشغاله بقراءة الأوراق، وقف الشيخ أمام المكتب والموظف لم يبدى له أي اهتمام، بادره الشيخ بالكلام قائلاً:

كيف حال حضرتك يا ابني؟

الموظف ينظر له من فوق زجاج نظارته، يبسط يده اليمنى ضام أنامله مشيرا له بالصبر، ظل الشيخ منتظراً واقفاً مكانه ، تمر الدقائق وكلاً منهما على وضعه، ألا أن الشيخ أحس بتعب شديد في رجليه جعله يناوب حَمْل جسمه من قدم لأخرى، وظل على ذلك حتى رفع الموظف رأسه وشخص إليه سائلاً: هل استكملت الورق المطلوب؟

الشيخ يعطى له الملف قائلاً: إن شاء الله الأوراق كاملة ومجهزه كما وجهتني،

تناول الموظف الملف وألقى به على سطح مكتبه ثم نهض ليجرى اتصالا هاتفياً، تتعاقب الدقائق وهو يتحدث في الهاتف مقهقها مرة، ومنصتا أخرى، والشيخ واقف في مكانه لا يستطيع الوقوف فقد حل علي ركبتيه ألام شديدة، فقال: يا ابني أنا لا أستطيع الوقوف، من فضلك، هنا قطع حديثه الموظف قائلا بصوت جهور: ألم تراني أتحدث؟

الشيخ:

يا ابني، أنا على هذا الوضع منذ ساعة تقريباً

الموظف ينظر إليه نظرة شَزْرَاءُ غير مبالي ويواصل حديثه التافه وهزله المَعْتُوهٌ،

الشيخ: يا ابني، أبُوسُ يدك اعتمد أوراقي

يتدخل موظف أخر في الحديث موجها كلامه إلى زميله قائلاً:

اعتمد أوراق الشيخ يا أخي،

الموظف:

obeikan.com

قم اعتمدها أنت

الموظف الأخر:

ليس لي شأن بعملك

ينهى الموظف حديثه في الهاتف، ويذهب إلى مكتبه ثم يتصفح ملف الشيخ ويسأله: أين باقي الأوراق؟

الشيخ:

يا ابني، حضرتك فحصت الملف أمس وقلت أن هذه الورقة -أشار بيده على ورقة معينه-هي الناقصة فقط

الموظف:

نعم أنا قلت على هذه الورقة وعلى أوراق أخرى، يبدو أنك نسيت

الشيخ:

يا ابني ارحمني، أنا رجل عجوز وليس لي مقدرة على تلك المشقة

الموظف:

أأخالف اللوائح والقوانين من أجلك؟

obeikan.com

أشتد القيل والقال بينهما، ونهض الموظف من مقعده وسند يده الشمال على سطح المكتب وقال:

ليس لي ذنب، انك بطئ الفهم حمار، ورمى الملف بقوة على حافة سطح المكتب فسقط على أرضية الغرفة

صعق الكلام الشيخ ولم ينطق لكن نطقت عينه بالدموع، أطرق رأسه شاخصا للملف هنيهة، صارخا في دخيلة نفسه صرخات مكتومة تلوم الحاجة التي ذلته بعد عزة، وا حَسْرَتَاهُ على إنسان سخره الله لقضاء حوائج الناس فظلم وافترى ولم يتقى الله،

لم يجد الشيخ أمامه سوى أن ينحني ليلملم أوراقه، جلس الموظف على مقعده غير مبالي، أثناء تلك الأحداث، كان يراقب الموقف فراش المكاتب، قدمَ مسرعا إلى الشيخ يساعده في جمع الأوراق ثم مسك بيده ليساعده على النهوض، ثم وجه نظره غاضبة للموظف الذي تظاهر بأنه منهمك في عمله، وسحب الشيخ للخارج،

مشى الشيخ معه وقبل خروجهما من الباب صاح الموظف قائلاً: عد لي كوب من الشاي يا حمار،

لم ينظر له الفراش وواصل سيره للخارج- هنا- التفت الشيخ له قائلا: لا تعتقد أن الذل الذي أذاقته لي سوف

يذهب سُدى، إن شاء الله ستذوق كأس الذل وحسبي الله ونعم الوكيل،

خرج الشيخ ومازالت عيناه تنضح بالدموع، أما الفراش هم وجلب مقعد وكوب من الماء لعله يستريح ويهدأ، بعد برهة، عزم الشيخ على مغادرة المكان لكن الفراش قال له:

اترك ملفك معي وأنا سأنهى وسأكمل ما يحتاجه، فأنك متعب، أخرج الشيخ بعض النقود ليهبها للفراش لكنه رفضها وقال: احتاج لدعائك فقط،

عاد الشيخ لمسكنه وكانت في انتظاره زوجه، حكي لها ما حدث بإيجاز، ظلت زوجه تدعو على الموظف في كل صلاة، بعد بضعة أيام فوجئ الشيخ بالفراش مبتسماً واقفا أمام باب شقته، دعاه للدخول، يدخل الفراش وهو يتحدث قائلا: تستطيع أن تصرف المعاش من الشهر القادم، لم يصدق الشيخ ما سمعه ويقول مندهشاً: أصدق ما تقول؟

يكرر عليه الفراش ما قاله،

صاح الشيخ على زوجه ليبشرها بالخبر، ابتهجت الحاجة وفرحت فرحا شديدا، وظل الزوجان يدعوان

للفراش دعاءاً كثيرا، وهو ينظر إليهما ويحمد الله انه كان سبب لإسعاد قلبهما،

تتعاقب الشهور، والفراش اعتاد زيارة الزوجين والسؤال عنهما فأصبح ابن وصديق لهما، وفى أحد الزيارات جاء مبشراً الزوجين بما حدث للموظف قائلاً:

منذ أسبوعين سقَط الموظف أرضًا مغشي عليه، ألتف حوله الزملاء وتوجهوا به إلى المستشفى، وهناك أخبرهم الطبيب بأنه أصيب بجلطة دماغية تسببت له بشلل نصفى، والأَدهى والأَمَرُّ من ذلك، أن زوجه لم تهتم بأمره وتركته ذليل بلا خادم أو راع، ثم يبتسم الموظف ويواصل حديثه قائلاً: (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)، فأنه أفترى كثيراً ولم يخف الله،

تأثرا الزوجان بحديث الفراش ودمعت عينهما وأشفقا عليه وكأنه لم يفعل لهما شيء ثم قالا: اللهم أنت الرحمن الرحيم أعفو عنه وأشفيه من مرضه، فما كان للفراش إلا أن أطرق رأسه خجلاً.

❊ ❊ ❊

النافذة

تخيل يوم عرسه على الفتاة التي أحبها، منذ أن الْتَقَت عينيه بعينيها، لم يجرؤ قط أن يعبر لها عن حبه، واكتفى بنظرات يخطفها سهوًا كلما غدت أو راحت، غلبه الشوق وساقه إلى دربها، واجبره أن يسلط بصره على نافذتها ليملأ قلبه بملامحها، داوم على هذا الحال برهة من الزمن،

رغب في مصارحتها لكن غلبه الخجل وسجنته قصر يديه في قفص الوساوس، فهي بنت أثرياء كابرًا عن كابر،

obeikan.com

يثور في رأسه صراع عنيف يمنعه من النوم، وإذا نام تبقى أفكاره مستيقظة، لم يفضفض لأحد عما يعانيه، عاش في سجن العزلة، يتعجب من حال البشر!، ويتساءل لماذا يرفضون الفقير بأخلاقه الحميدة، ويرضون بالعاصي لكونه غنى؟.

انتبهت الفتاة لمروره المتكرر، ونظراته الخاطفة، وحياؤه المفرط، كان جسمه ينتفض، ويحمر وجهه خجلا، ويطرق رأسه كلما رآها، أعجبت الفتاة به وأخذتها الحيرة، تساءل نفسها: هل أحبته؟، ثم يحدثها عقلها متكبرًا عمن يكون هو حتى يتقدم لخطبتها فطلعته تدل على إنه فقير ابن فقير!

تجرى الأيام مسرعة، وتتغير الأحوال، وترقد الفتاة على ظهرها أسيرة الفراش، يتوقع كل من يراها بأنها أوشكت أن تموت، أكمد أهلها الحزن، وندبوا شباب ابنتهم الضائع، طرقوا أبواب الأطباء وأنفقوا من الأموال الكثير، لكن ابنتهم تزداد مرضًا، سقمت الفتاة في قلبها ولا مفر من الموت، جن عقل الشاب عندما سمع بأن حبيبته مرضت، واشتدت عليها الآلام، ولم يرحمها المرض، توجه صوب بيتها متربصًا لرؤيتها لكن باءت محاولاته بالخيبة،

سيطر عليه الحزن، تلوى ألمًا، حاول أن يصرخ، أن يبكى، أن ينفس عما بداخله لكنه لم يستطع، ظل ملتزم الصمت في حجرته حتى عمله انقطع عنه، أصبحت الدنيا في عينه شديدة السواد، كُتب عليه أن يعيش في ألم الحب، وألم التألم بآلام الحبيب، لاحظ كل من حوله شحوب وجهه وتدهور صحته إلا هو لم يدرك غير حبيبته.

ذهب إلى بيتها رث الهيئة، ملتزم الوقوف، ناظرًا إلى النافذة مفتوحة الشيش، حتى أبصره أرباب البيت، يسألونه عن سبب الوقوف، تلجلج حديثه، لملم كلماته، وطلب أن يرى فتاته فاستجابوا لطلبه، غلب عليهم الظن بأنه مسكين مستجيب الدعاء ينفع ابنتهم، وليته لم يرها فقد أكل المرض جسمها، وصبغ الصفار وجهها، ذبلت عيناها، وأحاطتهما هالتين من السواد، اقترب من فراشها وعينيه تنضح بالدموع،

بقى صامتًا يفكر كثيرًا في حكمة الله في المرض والموت، ويتعجب لحال البشر، يتسَاءل ما معنى أن نحيا ثم نموت، ولماذا نمنح العيش ثم يسلِب منا، ولماذا هبطنا إلى الأرض إذا كان لابد من الإقلاع، لماذا نفقد من أحببناه وأحبنا، غرق في طوفان من الفكر، حتى تحدث الوالد لابنته ينبها بهذا الشاب، نظرت إليه برهة لكنها استغربت شكله، وأشفقت على هيئته التي ازدادت سوء،

ونحافته المفرطة، وشعره المتلبد، تحدث إليها بكلام يزامنه النحيب بأنه لا يرجى من الدنيا إلا أن يراها سالمة، ثم لم يسمع منه غير البكاء، قبض الأب على يد الشاب ليخرجه لكن أومأت الفتاة لأبيها بأن يتركه، قعد الشاب بجوار فراشها صامتًا، مكتفى بالنظر إليها واستنشاق نسماتها، تنظر الفتاة إليه وبصوت متقطع مرتعش تسأله: كيف تراني؟ ألست جسد هامدا ينتظر مغادرة الروح؟، فالمرض لا يطرق الأبواب، يدخل كما يشاء وقتما يشاء، لا يفرق بين غنى وفقير، فلا يذل الإنسان غير المرض.

صارحت الفتاة الشاب بما في نفسها، هل لأنه غريب أم اطمأنت له أم أنها بقايا روح!؟. غادر الشاب واشتعل حزنه دون أن يبوح بحبه، فحالها كتم الكلام، ظل يطوف في الشوارع يفكر في حديثها، ثم يرجع إلى بيتها يلقى نظرة على نافذتها مغلقة الشيش ثم يغادر، دام على هذا الحال أيام صنع منها شهورًا، أصبح الشارع مسكنه وبدا لناظريه إنه لمجنون، يطوف في الشوارع ثم يرجع إلى بيتها يلقى نظرة على نافذتها مغلقة الشيش ثم يعود الرجعة، يمشى في الشارع شاردًا لا ينطق بغير: افتحوا النافذة لا تغلقوها.

❊ ❊ ❊

أولاد نمنم

لم يكتف الإنسان بكوكب الأرض مسكن، بل داوم البحث عن كوكب أخر يلبى احتياجاته، ينظر العالم إلى شاشة الحاسوب، يركز في إحداثيات خريطة التقطت لكوكب مجهول، يحدق في الشاشة،

لا يتحرك وجهه ولا يطرف، عينه شاخصة فاحصة للخريطة، يعم الهدوء مع إيقاع متزامن لصوت نقرات قلمه على سطح المكتب، يبتسم وتلمع عينيه ويدور بسرعة تجاه زملائه ويصيح قائلا: يوجد مياه، هذا الكوكب ملئ بالمياه،

obeikan.com

يقف الجميع ويتجهون صوب شاشة الحاسوب، يضع يده على الشاشة ويشرح لهم اكتشافه، يهللوا وتغمرهم السعادة، قامت الدنيا على هذا الخبر، الكل يحلم بمغادرة الأرض، يجتمع الساسة والعلماء سويا لاتخاذ القرار، أجمعوا على سكن هذا الكوكب، فالأكسجين متوافر والتربة خصبة والجو دافئ والسفر إليه لا يتعدى عشرة أيام، إذًا ماذا ينقص هذا الكوكب غير الإنسان ليعمره ويجعل منه جنات، يعرج المستكشفون للمريخ،

يرسلون البشائر لسكان الأرض، الملايين من البشر مستعدون للرحيل، تصطف المراكب الفضائية لنقل السكان الجدد لكوكبهم الجديد، بمجرد أن وطأت أقدامهم الكوكب، تصارعت الأمم، الكل منهم يطمع في الأفضل، أوقدت أن تشب الحروب بينهم، كل منهم ينسب الفضل لنفسه، أنشأت منظمة أمم لتنظيم العلاقة وتقسيم الكوكب بينهم،

مهدت التربة للزراعة، وبنيت المساكن وبدأ التنقيب عن المعادن، اكتشفوا مغارات شديدة العمق تصل لآلاف الأميال، ظل التنقيب على أشده حتى أكتشف جدار عظيم البنية متين التركيب، ذهل المستكشفون من دقته ومتانته وسبيكته الحديدية الفولاذية، اختلفت الآراء كونه صنيعة الطبيعة أم الإنسان، فقد هبت رياح الخوف والقلق عليهم، وكثر القيل والقال، وتفاقم الذهول بعد أثبات

الدراسات أنه مصنوع بإتقان حرفي منذ ألاف السنين، اختلفوا على فحصه فمنهم من يرجح تركه على حاله ومنهم من يصمم على اكتشافه، هكذا يكون الإنسان لا يرض بشيء، دائم الطموح للمزيد، تقول الحكمة إن الإنسان عدو ما يجهل لكنها كاذبة، فدوما يبحث الإنسان عما يجهل، وإذا وقعت الواقعة يندم راجيا الرجوع،

حشرت المعدات الحفارة والمهندسون الأكفاء لتحديد موقع التنقيب، تمر الأيام ولم يحفر من الجدار الصلب إلا القليل، ظل أهل الأرض على هذا الحال شهور وكأن الجدار يقاومهم ويدافع عن بقائه، وكلما اقتربوا من اختراقه سمعوا نمنمة لكن طموح الإنسان الجامح يضفى على التفكير الراجح ويجعله يواصل الطريق دون بصيرة أو إبصار، تبقى على ثقب الجدار أيام قلائل، أيام على كشف المستور، وقد كان ما رغبوا وثقب الجدار،

سلطت الأضواء لإظهار ما يخفيه بداخله، رأوا مساحات شاسعة لا تحصرها العين، وحشرات تحاول الخروج من الثقب، ارتسم على الأوجه بشائر النصر، نصر اكتشاف حياة على كوكبهم الجديد، شجعهم هذا على استكمال التنقيب وأتسع الثقب وأصبح مدخل، رائحة عفونة لا تحتمل، رائحة تخرج ما في الجوف غصبا،

كممت الأفواه بالأقنعة، تخطو الأرجل في برك من قاذورات، كلما أضئ المكان ازداد الخوف، منهم من أراد الانسحاب ومنهم من أراد الاستمرار، يسمع بعض الهمسات ويلمح خيالات تختفي بتسلط الضوء عليها،

ينمو الخوف ويتضخم، الموقف مريب مخيف، تضطرب الأعصاب، يصرخ البعض بكلمات الرجوع لكن قد فات الأوان، أغرق المكان بطوفان من الأجساد تتشابه ملامحهم مع البشر، تختلف أطوالهم، منهم من يصل طوله أشبار ومنهم من يتعدى طوله الأمتار، طوقتهم تلك الكائنات وظل الصياح دائم لا ينقطع،

اقترب منهم العديد ليلمسوا ويتفحصوا تلك الشخوص الغريبة المقتحمة لوطنهم، تلك الأوجه المصابة بالذعر، نفخ في بوق فسكت الجميع واصطفوا ناكصي الرؤوس، وإذا برجل ضخم البنية طويل القامة تبوح ملامحه بالقبح، ترجل نحو البشر وظل ينظر فيهم نظرة فاحصة ثم يبتسم قائلا: انتظرنا هذه اللحظة منذ ألاف السنين لخروجنا من هذه السجن المقبور،

حاولنا مرارا تحطيم الجدار وفشلنا، ثم صرخ: اليوم لكم يا أولاد نمنم سترجعون للأرض، سنحكم من جديد، سيصبحون عبيدنا، هاج قومه وماجو سعداء مهللين

صارخين، رفع زعيمهم ذراعه فسكت الجميع ثم واصل حديثه قائلا:

- سنحاسبهم على ما فعلوا معنا، النصرة لكم يا أولاد نمنم، النصرة لكم اليوم.

❊ ❊ ❊

obeikan.com

المُحصل

في يوم شديد الحرارة رطب أغبر الهواء، يترجل محصل الكهرباء مرتديا قميص أسود، يتخلله خطوط عشوائية بيضاء، انبثقت من عرقه الغزير، يزعق بصوت عالي كهرباء...كهرباء،

تسمع الابنة صوت المحصل فتضطرب كأنها سمعت صفير إنذار حرب لا نجاة بعده ، هرولت الابنة إلى أمها مضطربة قائلة:

محصل الكهرباء في الحارة يا أمي،

obeikan.com

صعقت مقولة الابنة جسد الأم حتى كاد أن يغشى عليها، ثم حدثت ابنتها بصوت خفيض حزين النبرة بأن تطفئ إنارة الحجرة، وأومأت بيدها على فمها موحية للابنة بكتم أنفاسها حتى لا ينتبه المحصل لوجودهما في الحجرة، شخصت الأم إلى حجرتها ذات الجدران الشعثاء الصماء الخالية من أي ألوان، وإلى فراشها الكرتوني البالي، وإناؤها المفتقر للطعام، وابنتها ذات الثوب البالي، ثم نظرت إلى السماء تحمد الله،

الأم والابنة ينصتان لوقع أقدام المحصل، يقترب الهمس رويدًا رويدًا، ويهمهم المحصل ثم بصوت جهور يقول كهرباء، يطرق باب الحجرة طرقا عنيفا حتى تأرجحت صفائحه، سكت المحصل هنيهة، واقفًا يتفحص محفظة الإيصالات، ثم يواصل الطرق قائلاً: عليكم إيصالات عشرة أشهر، وأمرت أن أفصل التيار الكهربائي عنك لحين سدادكم المستحقات، وعلمت من جارتك أنك بالداخل، فلا داعي للاختفاء، تنظر الابنة إلى أمها وعينيها مخضلتان بالدموع، أما الأم أخفت سريرة نفسها في قلبها ثم أطرقت وحدثت ربها قائلة:

أسألك بحق لا ألـه إلا أنت أن ترزقني وأكون من الحامدين الشاكرين، يعاود المحصل طرقه الفظ على الباب ثم يقول: أنني لن أتوسل إليك لدفع ما استهلك من التيار الكهربائي، حان الوقت لفصله،

ينظر المحصل أعلى إلى موضع علبة التوصيل الكهربائي ثم يلتقط زراديته من أحدى الجيوب الخلفية لسرواله، يحرك مقلتيه بسرعة يميناً ويساراً باحثاً عن درج يعلو فوقه، يسقط بصره على صندوق قمامة حديدي متروك أمام الباب، التقط الصندوق ثم قلبه على فوهته مبعثراً ما بداخله أرضًا، وهم بالوقوف عليه،

تنصت الأم وأبنتها إلى حركات المحصل وسكونه، شخصت الأم إلى الباب وقالت لابنتها: أخشى أن يعتلى المحصل صندوق القمامة ولم يكترث لصدأ القاع ويصاب الرجل بمكروهٍ ما، نظرت الابنة إلى أمها نظرة ذاهلة ثم قالت: لعله يصب بمكروه عقاب له على سوء أدبه وتهكمه علينا، نهضت الأم من مرقدها قاصدة الباب، في تلك اللحظة أعتزم المحصل اعتلاء الصندوق،

صرخت الأم قائلة:

كُن حذرا يا رجل، ولا تعتلى هذا الصندوق المتهالك، حماك الله، تأمل الرجل الصندوق وجده مهلك بالى أكله الصدأ أكلا، وأنه لكان حتما مصاب إذا اعتلاه، التفت الرجل إلى الأم بعد أن هدأ ولام نفسه قائلاً:

جزاك الله خيراً على حسن المعاملة، وأعذريني على سوء أدبي معك، فأنك قابلتي السيئة بالحسنة، تالله سأدفع

لك ما أستحق سداده من إيصالات جزاء لمعروفك، أطرقت الأم خجلا أن تلقى عينيها عينه، سابحة في عظائم الله وفضائله عليها ثم رفعت رأسها لتشكر المحصل فلم تجد له مطلع فقد رحل المحصل.

❊ ❊ ❊

obeikan.com

هياكل دجاج

لم أنتبه لها منذُ أن وقفت أمام بائع الدجاج، ظلت واقفة صامتة تنظر إلى الدجاج وإلى أجزائها المتنوعة المعروضة للبيع، طال وقوفها حتى سألها البائع عما تريد، التفتت نحونا هنيهة وكأنه تستحي من أعيننا، ثم رفعت رأسها تجاه البائع ولم تقو على النظر في عينه قائلة: بكم ثمن الكيلو من هياكل الدجاج ؟

سمعتُ صوتها لأنني كنت بقربها أما البائع فلم يسمع، فسألها مرة أخرى فأشارت إلى مكان الهياكل، فقال لها بخمسة جنيهات ثم واصل عمله،

obeikandl.com

نظرتُ إلى الهياكل فوجدتها رقبة وقطعة ضئيلة من الصدر يتعلق الجناحان بهما لكن أغلبهم بدون أجنحة، ثم نظرت إلى وجهها أبيض البشرة المصبوغ بحمرة الخجل، وعينيها المثبتتين على نقطة ما في الأرض، وملابسها النظيفة شاحبة اللون، سألها الرجل ثانية عن كم كيلو ترغب؟

فأجابت بأنها تريد كيلو واحد فقط، يقف بجواري رجل لا يختلف مظهره البسيط عنها، ظل ينظر لها وكأنه يريد أن يحدثها لكن الخجل لم يمكنه، لم يمض ثواني حتى خطى إلى داخل المحل وهمس في أذن البائع ثم عاد لموقعه،

أسرني الفضول ورغبت في معرفة ما دار بينهما لكنني لم أجرؤ على السؤال، انحنى البائع على حقيبة بلاستكية سوداء وأخذ منها دجاجة كاملة ووضعها في حقيبة أخرى ثم توجه بها إلى السيدة وطلب منها أن تأخذها فتناولتها على أنها مطلبها، وبمجرد أن فتحتها ورأت الدجاجة اندهشت وقالت للبائع بأن هذه الحقيبة لا تخصها، فقال لها البائع إنها لكِ، نظرت السيدة مرة أخرى داخل الحقيبة وعينيها امتلأت بالدموع،

ترددت السيدة أن تأخذها لكن حاجتها إليها كانت أقوى، والغريب أنها لم تنظر إلى البائع أو إلينا وهمهمت

بالدعاء ثم ذهبت، وظل الرجل ساكت دون أن يتلفظ بكلمة واحدةٍ يستمع وينظر، بعد أن غادرت السيدة قدم البائع للرجل الحقيبة السوداء التي كانت بداخل الدكان، فتحها الرجل ناظراً إلى داخلها، كان بداخلها دجاجة واحدة فقط ثم ابتسم وقال للبائع:

زن لي كيلو أخر من الهياكل.

❊ ❊ ❊

obeikan.com

دودة الفقر

سقط بصري لمحة على رجل بلا مأوى، مطرق الرأس، يحتمي في ركن أسفل مطلع كوبري، واصلت السير تاركا إياه فمثل هؤلاء كثيرون فماذا أملك غير الشفقة عليهم، لكن بعد أن خطوت بضع خطوات، نكزني ضميري، وحثني أن أتوجه إليه، فربما يكون مصاب بمكروه، أو يريد شيء،

قصدت موقعه وأنا متأفف فالمكان رطب مغطى بالقاذورات ورائحته كريهة جدا، ناديت عليه مرات لكن لا حياة فمن أنادى،

obeikan.com

دنوت منه فرأيت رجل شديد النحافة يرتدى ملابس رثة بالية، توقف النداء وظللت أراقبه وأتأمله والرجل ثابت مكانه، دققت النظر فيه لعلى أرى انقباض وانبساط صدره لكنى لم أره، انحنيت عليه وبعض الخوف في نفسي يحدثني بأنه ميت، ربت على كتفه فانتفض بدنه، لكنه لم يستطع رفع رأسه،

سألته إذا كان بخير، فلم أسمع منه كلمة غير همهمة وتأوه مكتوم، سألته هل يحتاج لمأكل فهز رأسه بالرفض، فسألته هل يحتاج لشربة ماء فهز رأسه بالموافقة، جلبت له زجاجة مياه وحاولت أن أساعده على الشراب، رفع الرجل رأسه وكأنها حمل يثقله،

ظهر وجهه المسن المصفر المتسخ المجعد، أرتشف الرجل الماء وأطرق رأسه ثانية، وقفت بجواره ثواني فجذب نظري حكه القوى والمستمر لرجله اليمنى، رفعت ذيل جلبابه لأتفحص رجله، يا إلهي رأيت رجله متقرحة ملتهبة يأكل في لحمها الدود والرجل لا يملك علاج غير حكها، صعقني ما رأيت وارتعد بدني وابتعدت عن ملامسته إما خوفا منه أو خوفا عليه أو من صدمة المشهد، عاودت النظر ثانية إلى رجله فلم أجد الدود ولكنى رأيت بشر يأكلون في لحم حي.

❊ ❊ ❊

أباء وأبناء

صرخ في وجه ابنه قائلًا: يبدو أنى لم أعلمك من الاحترام إلا قليلا، وبعد فعلتك اليوم سأعاملك بحزم وقوة.

قال الابن: لما هذا الغضب يا أبى؟

ألم تفعل فعلتي البارحة؟

ارتبك الوالد واحمرت وجنتاه ثم أطرق.

* * *

obeikan.com

العجوز والفاتنة

يسلك الدرب فسقط نظره على امرأة عجوز شمطاء، اجتمع عليها هم الكبر وهم الشقاء، تجلس متربعة على جانب الدرب، تمد يدها ضارعه متوسلة، تسأله أن يعطيها مما رزقه الله،

ينظر إليها الرجل نظرة شزراء قائلًا: أنا لا أعطى شحاذ تسأل الناس إلحافاً، ولا انفق أموالى هباءً، ثم تبسم ساخرا قائلًا: كم من الأموال ادخرت أيتها العجوز الماكر؟

obeikan.com

استهلت عين العجوز بالدموع ثم نظرت إليه صامتة، واصل الرجل طريقه غير مبالي بما لفظه من كلمات شنعاء فطرت قلب ونفس العجوز، لم يمر من الزمن إلا دقائق حتى وقع نظره على امرأة متجملة، تقف في منتصف الطريق، تضاحكت له ثم أومأت إليه بالمَجِيءُ، تقدم نحوها ثم دنا منها حتى كاد يلامس جسدها قائلاً:

ألا ترغبِ في شَيء أقضيه عنك ؟

قالت بلسان دلوع: هل أعجبتك؟

قال بعدما مسه الهوى: أي نعم

قالت: أترغب فيَ؟

قال: نعم أرغب

قالت: ولكني غالية الثمن

قال: مهما يبلغ من الأموال فأنى راغب.

اتفق الاثنان ورحلا معا.

❊ ❊ ❊

obeikan.com

رجل الموقف

إذا نظرت إليه سيفزعك وجهه، سيقذف بداخلك خوف الاقتراب منه، ليس لأنه قبيح، فالصانع الله، هو جسيم البدن، مفتول عضلات الساعدين والصدر، يشق خده الأيمن ندبة كأثر جرح التئم، شعره أسود ناعم طويل، تؤطر عينيه هالتين داكنتي السواد، يرتدى قميص أزرق مفتوح الأزرار العلوية فيظهر صدره المزين بسلسلة فضية سميكة، مرسوم على ساعده الأيمن وشم أخضر داكن لا يلم بمعنى، يحتل موقف لحافلات الأجرة فارضا سيطرته على الجميع،

obeikan.com

لا تعبر حافلة بدون دفع الإتاوة، والويل لمن يعارض، سيدفع ثمن معارضته بتكسير حافلته أو بتكسير عظامه، يترك حرية الاختيار للمعارض، من كثرة رؤية تلك المشاهد تشعر كأنك في دولته فهو المشرع والمنفذ والقاضي، الموقف مزدحم، البشر تزداد بأعداد متوالية والحافلات غير موجودة في مكانها،

الكل ينظر على مدى بصره يتربص لأي حافلة آتية، وإذا اقتربت، كان الركوب للأقوى، فلا ركوب للكهول أو للضعفاء أو من يصاحبون أولاد، يقف رجل يبدو من ملامحه أنه في منتصف الثلاثينيات، يحمل بنت صغيرة على يده اليمنى ويقبض بيده الأخرى على ولد في الخامسة من عمره،

تأتى الحافلات وتنزح في البشر وهو واقفا مكانه، فضل هذا الرجل الوقوف على قوة المزاحمة لركوب الحافلة، يخاف على أولاده من أنانية البشر واندفاعهم السريع كالقطار الذي يدهس كل من يقابله بدون رحمة، ظل على هذا الحال فترة من الزمن حتى اكتظ الموقف بالبشر، والمثير للدهشة إن الرجل ظل واقفاً دون كلل أو ملل بل الأدهش أنه يلاعب طفليه، في وسط ذلك الزخم وكثرة البشر،

لوح رجل الموقف إلى سائق حافلة آتية، أمره بأن يحجز المعقد المجاور له، ركب من ركب وظل المقعدان على حالهم، توجه رجل الموقف إلى والد الطفلين وحمل الطفل الكبير مبتسماً، وفي هذه اللحظة فزع الرجل ثم ما لبث أن أطمئن حين قال له: هيا للركوب فقد حجزت لكَ مقعداً.

❊ ❊ ❊

obeikan.com

صورة وإطار

على فرشة بلاستكية مكدسة بالأشياء القديمة والحديثة والخربة والتي ليس لها معلم، أشياء ترمى في صفيحة القمامة من طرفك وتباع لطرف أخر، في قلب تلك الأشياء سقط بصري على بعض الصور الضوئية القديمة التي لم تعرف غير اللونين الأبيض والأسود، صور مؤطرة بإطار خشبي أنيق يدل على سخاء وأناقة أصحابها، صور لرجال وسيدات مجهولي الهوية،

obeikan.com

وقفت لتأمل ملامح ومظهر وملابس هؤلاء، فأعجبني جدا أناقة هذا الجيل الذي أخمن أنه جيل من ثلاثينيات أو أربعينيات القرن العشرين إذا وفقت التخمين، وحتى أكون صادق الحديث فإن إشفاقي على أصحابها فاق إعجابي بهم،

التقطت أحد الصور الملقاة على الأرض وتعجبت لكونها على هذا الحال القاسي وحدثت نفسي سائلاً: ماذا لو رأى أصحابها كيف تباع ذكراهم على الرصيف، وكيف تخلى أولادهم أو أحفادهم عنهم، دار في خلدي الكثير من التساؤلات التي يصعب الإجابة عنها، لكن أيقنت إن الإنسان لن يبقى منه شيء وإذا تبقى سيتآكل مع مرور الزمن وإذا صمد فترة فحتمًا سيلقى حتفه رميًا في مخزن أو متجر دون أن نعلم هويته.

❊ ❊ ❊

تذكرة

كعاداتي دائما أتكاسل عن أداء بعض المهام، ذهبت لحجز تذكرة للقطار المتجه من الإسكندرية إلى القاهرة قبل ميعاد قيامه بحوالي نصف ساعة، وبالطبع لم احصل على حجز فجميع المقاعد مشغولة، فاضطررت أن اركب القطار واقفا، فالوقوف عندي أفضل من سيارات الأجرة وفظاظة سائقينها، وقفت في المنطقة الفاصلة بين العربيتين ثم فرشت كيس بلاستيكي وجعلته مقعدي وأخرجت كتاب يخفف علىَ بُعد الطريق،

جلس بجواري رجلان وفتاتان وسيدة عجوز مختمرة بخِمار رمادي طويل يغطى معظم جسدها فلا يظهر

obeikandl.com

سوى الجلباب الأسود، ظلت السيدة العجوز واقفة على الرغم من طول المسافة، جلبت لها قطعة من الكرتون لتجلس عليها لكنها فضلت الوقوف حتى لا تشتد عليها ألام مفاصلها إذا جلست فيصعب عليها النهوض،

جاء المحصل والكل منا دفع الأجرة باستثناء السيدة العجوز فاقتربت من المحصل وقالت بصوت يلحنه القلق والضعف: اعذرني يا ابني ليس معي نقود، تجاهلها المحصل ومضى في طريقه، لم يستوقفني الموقف إلا عندما سحبت إحدى الفتاتين محفظة نقودها وأخرجت بعض المال وقدمته للسيدة العجوز،

رفضت السيدة العجوز أن تأخذه لكن بعد الإلحاح من الفتاة قبلته السيدة ثم امتلأت عيناها بالدموع واحمرت خداها خجلا، وقفت الفتاة واحتضنت السيدة العجوز، ولم ألاحظ غياب الفتاة الأخرى من المشهد إلا عندما أحضرت بعض المأكولات وزجاجة مياه لتقدمها أيضا إلى نفس السيدة، قرب نزول السيدة نظرت إلينا وأوصتنا جميعا عليهما كما وأنهما بناتها، احتضنتهما مرة أخرى قبل مغادرة القطار، ظلت البنتان واقفتين بجوارها حتى نزلت في محطة طنطا.

❊ ❊ ❊

عبر الذكريات

تطوف في أرجاء البيت، تدخل حجرة وتخرج من أخري، تتأمل صور ضوئية بالأبيض والأسود معلقة علي جدار الذكريات، صور لأشخاص غادروا دنياها إما عَنوة أو بإختيارهم، يجذب بصرها صورتها مع أبويها: طفلة ضاحكة تمسك بيدها ضفيرة من شعرها، وبالأخرى تضم دمية إلي صدرها، وصورة ثانية: محاطة بالأصدقاء، ماسكة بيدها قبعة وبالأخرى شهادة ملفوفة، وصورة: لزوجها يحتضنها من الخلف واضعة كلتا يديها علي يديه ويعلو وجههما الحب، وصورة: وهي تتأبط ابنها تحت إبطها الأيمن وابنتها بالأيسر، إلي أن تصل لصورة لها بالألوان واقفة وحيدة بوجه باهت، متوكئة علي عصا بكلتا يديها.

❊ ❊ ❊

obeikan.com

الفهرس

إهداء ٧

القطار ٩

كلنا مروان ١٤

ابن الحمار ٢١

الآنسة ٢٩

البالوعة ٣٤

زكيبة الأحزان ٤٠

كوب الشاي ٥١

حفيد الترابي ٥٤

اختفاء ٥٩

حب هاجر ٦٤

تحت التراب ٧٣

تخمة الأقفاص ٨١

obeikan.com

الشيخ عبد الهادى ٨٦
النافذة..... ٩٥
أولاد نمنم ٩٩
المحصل..... ١٠٤
هياكل الدجاج ١٠٨
لدودة الفقر ١١١
أبناء وأباء ١١٣
العجوز والفاتنة ١١٤
رجل الموقف ١١٦
صورة وإطار ١١٩
تذكرة ١٢١
عبر الذكريات ١٢٣

obeikan.com